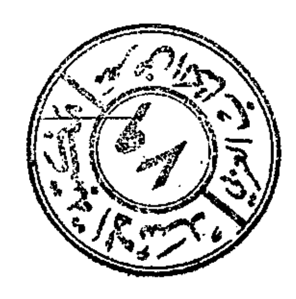
رائحة الخطو الثقيل

ابراهيم صموئيل







رائحة الخطو الثقيل

* رائحة الخطو الثقيل
* ابراهيم صموئيل
* الطبعة الأولى: آب ١٩٨٨
* الطبعة الثانية: كانون الثاني ١٩٩٠

* دار الجندي للنشر والتوزيع
سورية - دمشق - ص.ب: ١٠٥٣٠ - هـ: ٤٢١٢٥٤

الغلاف للفنان:
يوسف عبدلكي

ابراهيم صموئيل

رائحة الخطو الثقيل

قصص





الى الثلاثي :

رام

القضية

ممدوح عدوان

رجل يحمل قضية ، أو رجل يدافع عن قضية . يغامر ، ويضحي ، من أجلها . يعيش حياة الملاحقة والتخفي . ثم يُقبض عليه ويدخل السجن . يواجه ما يواجهه السجناء السياسيون عادة . يقضي مدة ما ثم يخرج فيكتشف انه كان يحمل قضية ، وفي هذه التجربة اكتشف « القضية » .

ما يلفت الانتباه في هذه المجموعة من القصص القصيرة التي تنزف ، بفعل السياسة ، انها تخلو من كلمة سياسية واحدة . انها ، ايضاً ، خالية من مشاهد التحقيق والتعذيب والضعف ، او البطولة ، أمامها .

ربما لهذا أثارتني المجموعة ودفعتني للكتابة عنها .

هناك فخ وقع فيه كتاب كثيرون . وهذا الفخ هو مقولة ان الكاتب شاهد عصره . هذه المقولة الصحيحة تحولت الى فخ من خلال سوء فهمها وسوء التعامل معها . فكلمة « شاهد » أوحت للكثيرين بجو المحكمة وبضرورة الالتزام بقسم « والله العظيم أقول الحق . . . . » وبالتالي فانهم حولوا الادب الى شهادة قضائية أدى ادعاءُ الحياد والموضعية والصدق فيها الى غياب الحياة (كما يحدث في المرافعات السياسية في « العقب الحديدية » لجاك لندن) .

بعد ان ترجمت كتاب « التعذيب عبر العصور » قررت كتابة شيء عن هذا الموضوع . ورجعت أقرأ ما كنت قد قرأته وما ارشدني الآخرون الى قراءته حول التعذيب وآثاره ونتائجه وأسبابه ، وقرأت ، بشكل خاص ، في الادب وبعض الابحاث النفسية والاجتماعية .

ولان العالم حاشد بالقمع والعنف فان التجارب التي سجلت كانت كثيرة ومريعة . ولكنني بين حين وآخر التقي بمن خاض تجربة شخصية فأكتشف

ان الواقع اكثر شناعة وترويعاً من تلك الكتابات . واذا كانت الكتابات قد استطاعت حمل شهادة الفضيحة عن الحد الاقصى الذي يمكن ان يصل الانسان اليه في وحشيته أو في صموده الا ان معظمها أهمل ، من خلال تصوير ضراوة المعركة بين السجين والسجان ، ان يحاول تقديم شيء من الحياة التي يدافع عنها السجين او يخسرها . . أي انه أهمل « القضية » .

ذات يوم سمعت عبد الرحمن منيف ينصح كاتباً « متخرجاً » من السجن . وقد قال له : ها أنت قد خضت تجربة وعانيت ودفعت الثمن . اهدأ الآن . وسيطر على توترك وردود أفعالك . واكتب أدباً .

ابراهيم صموئيل لم يسمع نصيحة عبد الرحمن منيف لكنه استمع الى نصيحة قلبه . وربما كان قلبه هو الذي اكتشف « القضية » .

ان المناضل السياسي يَحمل قضيته شعاراتٍ وعناوين . ولذا فهي قضية عامة : الوصول الى الجماهير ، تحريك الجماهير ، توعية الجماهير ، البحث عن حل لمشكلة المجموع ، البحث عن اثر الانحراف السياسي على الشعب . . . الخ .

أما « القضية » ـ والتي يتعامل معها ابراهيم صموئيل بعد التجربة في قصصه كلها ـ فتبدو خاصة وشخصية . انها تفاصيل من الحياة . ولانها تفاصيل صغيرة وخاصة وشخصية فإنها اكثر إنسانية من الشعار السياسي . فهي ، حتى حين تغرق في الخصوصية والشخصية ، تصبح أكثر شمولية لانها تشبهنا . وتصبح ايضاً اكثر تأثيراً لانها تُدخلنا من باب القلب ، سيد الحياة ، بينما يُدخلنا الشعار السياسي من باب العقل (قاتل الادب) .

والنضال السياسي ذاته يهدف الى ما هو أبعد من السياسة . لكن فقر حياتنا أنسانا ذلك الهدف البعيد . فظننّا ان الهدف هو فقط تحقيق الشبع والكفاية والمساواة والحرية . ونسينا ان هذه الامور ليست سوى الخطوة الاولى نحو تحقيق انسانيتنا : اي ان نصبح بشراً حقيقيين قادرين على تلمس جمال الحياة والتعامل معه ومجاراة الحياة في ابداعها ؛ فنصبح آباء أفضل وأبناء أفضل وعشاقاً أفضل ومبدعين أفضل .

سئل طفل فلسطيني في الارض المحتلة : لماذا تكره الاسرائيليين ؟

فقال : لانهم لا يسمحون لي ان ألعب بالكره هنا . وأشار الى ملعب قريب في مدرسة . وهناك كان الاطفال اليهود يلعبون ولا يسمحون للاطفال العرب باللعب .

اعتقد ان من الممكن الدخول الى اشكالية القضية الفلسطينية من اجابة هذا الطفل .

ان حياتنا جحيم .

يكفي انها تجبر شابة ، تعلم الصغار ، على التفكير في سرقتهم أمام عدم قدرة الدخل على سد الحاجات الضرورية (كما في قصة « ليّا ») .

وفي حياة التخفي التي يعيشها البطل (والذي لم نعرف ما هي قضيته السياسية لحسن الحظ) يظل الكاتب متشبثاً بهذه التفاصيل لانها هي الحياة . كان يمكن لشخص آخر ان يحكي عن المهارة في الهرب وعن البيوت السرية والمداهمات . ولكن ابراهيم صموئيل يحكي عن محاولة الهارب الالتقاء بالفتاة التي يحبها . وبعد ترتيبات مرهقة للاعصاب وارتماء ظلال الخوف تفشل المحاولة (رائحة الخطو الثقيل) وفي قصة « المقبرة » تنجح المحاولة فيتم لقاء جميل صغير في مقبرة .

ليست المسألة ، اذا ، توزيع منشور او إلقاء قنبلة أو اقتحام مكان . . ليست بطولة أو انجازاً . انها محاولة اللقاء بحبيب . فهل يستحق الامر هذا كله ؟ هل تستحق « إيثاكا » رحلة « أوليس » كلها ؟ نعم ، يقول كافافي ، « إيثاكا أعطتك الرحلة الرائعة . . ولولاها لما انطلقت مرتحلاً » .

بعد حياة المطادرة هناك حياة السجن التي نراها ، هي الاخرى ، من خلال قصتين . والقصتان تتحدثان عن زيارتين تقوم بهما زوجة السجين لزوجها .

الزيارة الاولى تحكي عن اللقاء الاول الذي يعوّل البطل عليه ، اضافة الى كل شيء ، بأن يساعده على رد جميل زملائه الذين تكاتفوا معه، في السجن مادياً ومعنوياً . ها هي زيارته الاولى . وبالتالي ها هو شيء ما

سيأتيه من الخارج لكي يتقاسمه مع زملائه الذين تقاسموا معه كل شيء . وتعطيه قطعة نقدية من فئة الخمسين ليرة . وفيها هو يتمعن في القطعة الورقية ويبحث عن رائحة حبيبته وآثار اصابعها فيها يكتشف انها قد كتبَت له بخط دقيق لا يكاد يرى كلمة حب !

وتتحول القطعة النقدية الى شحنة عاطفية : رسالة شخصية لاحقَّ لأحد فيها . في أحرف الكلمة صورة حبيبته وأشواقها وأسرارها . . ولكن الحياة ، والحياة في السجن خاصة ، أقسى من ان تسمح بالتعامل بهذا الحنان . (العيون المشرعة) في وجوه زملائه لا تترك خياراً : يجب غسل القطعة النقدية من عاطفيتها ، وتجاهل الكتابة عليها ، والتعامل مع قيمتها الشرائية فقط .

وفي الزيارة الثانية ، القصة الثانية ، يكون مع الزوجة ابنهما . يأتي الاب معبأ بالشوق والحب للصغير الى درجة انه يكاد ان ينسى زوجته . شحنة اللقاء مكرسة لمحاولة التماسّ مع الصغير الذي بدأ يتعرف على العالم الخارجي في غياب ابيه . يمد الاب عينيه وأشواقه ورغبته في الضم والشم والعناق ليقيم جسراً يوصله الى الطفل ولكن الطفل لا يعرف أباه ولا يهتم به ولا يستجيب لعواطفه . وقصر وقت الزيارة ، مع وجود الحاجز الشبكي ، لا يتيح المجال لتعميق المحاولة اكثر . ونكتشف ان الجدار الذي يفصلهما الان صار اكبر من ذلك الحاجز الشبكي الموجود في السجن . لقد حدث فصل قسري بين كائنين جميلين رائعين كان يجب ان يظلا معاً لكي تكون الحياة طبيعية . ومع ذلك يعود الاب مترعاً بسعادة فاجعة . يكفي انه رأى الصغير وتحدث اليه ولو من جانب واحد .

وهذا ينقلنا فوراً الى القصة الاخرى (الرجل الذي لم يعد أباً لابنه) حيث يكون الطفل قد كبر قليلاً واكتشف كلمة الاب . . فدلته الام على صورة لابيه . وصار الصغير يتعامل مع الصورة على انها أبوه . . يحادثها ويأخذ منها النقود ويشكو لها ويلاعبها . وحين يخرج الاب الواقعي من السجن يكون شيئاً آخر مختلفاً عن الصورة . يكون رجلاً قد انكسر

وتغضن وصلع . لم يعد ذلك الشاب الجميل المشرق الذي كان الصغير يتعامل معه ، فيرفضه الصغير مرة اخرى .

ربما كانت قوة هذه اللقطة في تكثيفها الخارق . وربما كان ما ساعدها للتحدث بهذا الشكل المؤثر عن التغيرات التي طرأت على الاب في السجن هو عبورها من خلال الطفل : الحياة بدّلت أباه بصورة . والصورة هي ما كان عليه .

لعل الام نفسها قد أحست بهذا الفارق بين الحبيب السابق وبين الزوج الخارج من السجن . لكن طرح الموضوع من خلالها سيعرضنا الى فتوى أخلاقية ، وسيجعلنا نطالبها بالتفهم . وسنقف على ابواب مأساة يتصارع فيها حقان مشروعان : (عاد أوليس الى ايثاكا فوجد بنلوبي عجوزاً . وبالمقابل عاد أوليس الذي انتظرته بنلوبي واذا به يعود عجوزاً) . . . ولكن كيف تناقش هذا الطفل ؟!

نحن في حاجة الى هذا الطفل في كل بيت لكي يدلنا ، دون ان يقصد ، الى ما فقدناه في تجاربنا المريرة .

نحن في حاجة اليه لكي نعرف قسوة الحياة حين يضعف بين أيدينا ونحن لا نستطيع له شيئاً ولكي نعرف كيف يتحول الشيء الصغير الوديع الى عبء أثقل من الجبال .

ونحن في حاجة اليه لكي نكتشف جمال التفاصيل الصغيرة في حياته وحياتنا . . ولكن بعد ان يموت .

هذا الطفل الجميل . . هذا الطفل الضرورة . . هذا الطفل العبء . هذا الطفل المرآة .

هذا الطفل الذي لم يتعلم المجاملة و « تقدير الظروف » بعد والذي يمكن ان يحرجنا حين ينكرنا او حين يطالب بأبسط الحاجات الضرورية للبشر والتي تعودنا تجاوزها . . هذا الطفل هو الذي يعرينا حين يصرخ : ولكن الملك عارٍ . فيعري الحياة من مكياجها الرديء ويدلنا على القسوة الحقيقية التي فيها وعلى اننا لم نكن نحيا حياة البشر .

ما الذي يفعله بنا أدب كهذا ؟

باختصار : يذكرنا بانسانيتنا . وهذا إنجاز عظيم . كأننا كنا مشدودين الى مباراة حامية في كرة القدم . عقولنا وعيوننا ، كلها ، مركزة على أرجل اللاعبين والكرة والمرمى والاهداف ، وبعد ان تنتهي المباراة نحس انه لم تعد لنا علاقة بالملعب . ثم يأتي ابراهيم صموئيل ليتفقد ارض الملعب ويدلنا على الزهور التي انسحقت ، والزرع الذي اختنق في الارض التي صارت ملعباً . . وليذكرنا بان الساعة قد صارت كذا واننا قد تأخرنا كثيراً على حياتنا . . وبأننا ، ونحن جالسون ، قد سُرِقنا : سنعود الى بيوتنا دون احلام ودون آمال ودون أوهام.

ما يتفقده الادب هنا ويدلنا عليه وعلى ما خسرناه هو انسانيتنا الضائعة . انسانيتنا المتمثلة في علاقاتنا الصغيرة وأوجاعنا الصغيرة وهمومنا الصغيرة وأحلامنا الصغيرة : البسمة التي أشرقت على وجوهنا ذات مرة . والدمعة التي افلتت من عيوننا ذات مرة . . وقطرة الدم التي قذفها سعالنا ذات مرة .

ما الذي تريد تحقيقه في الحياة ؟

هناك جوابان .

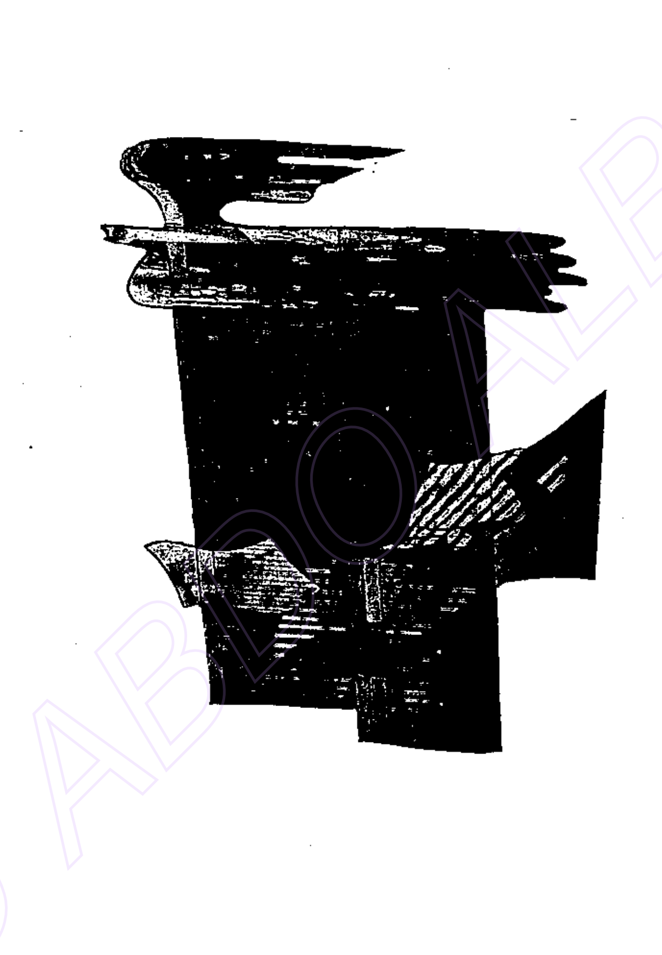
الاول : تحقيق الثورة الاشتراكية والعدالة في العالم والتخلص من كافة انواع الاستبداد والاستغلال .

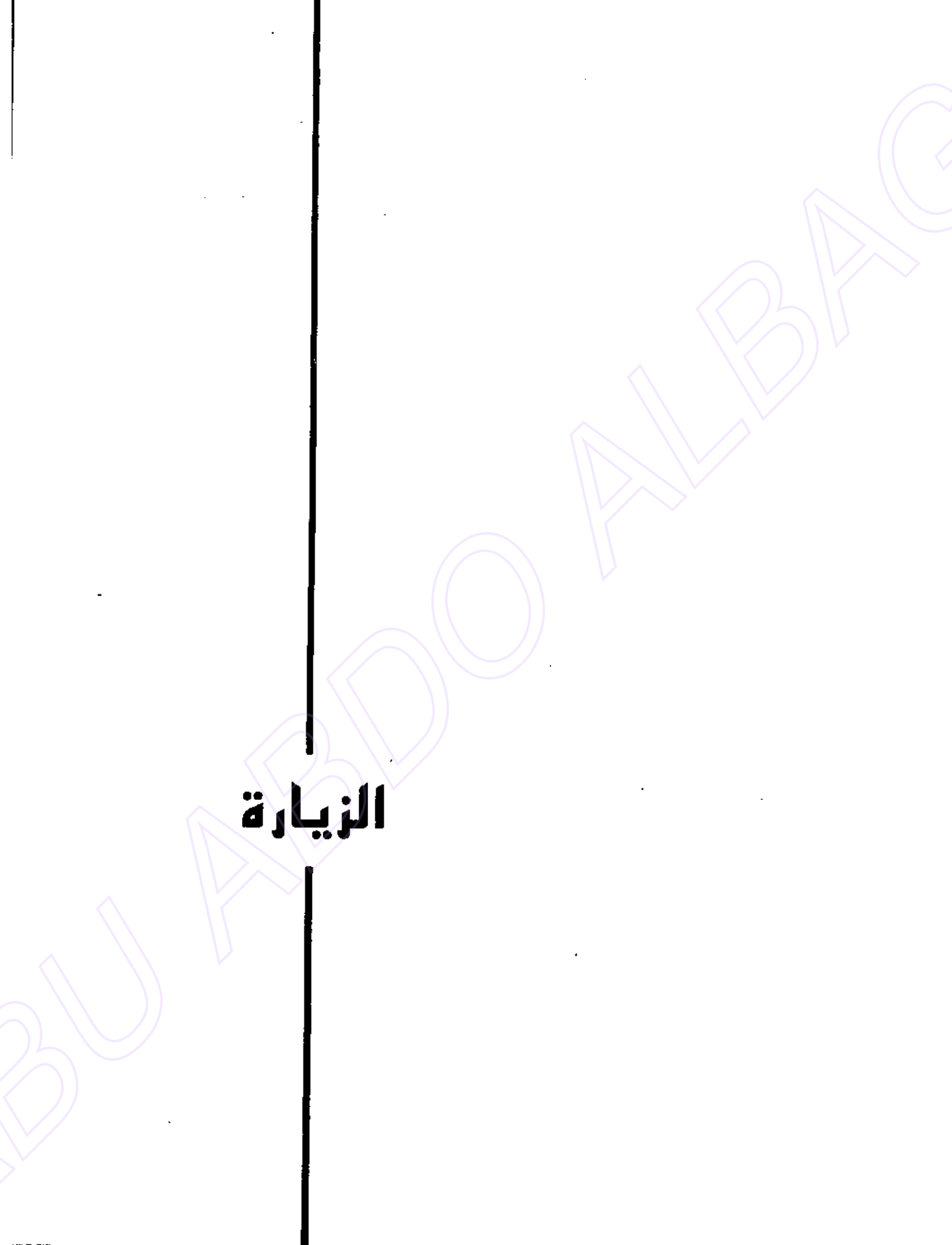
والثاني : ان اكون انساناً .

هناك من يطاردون (موبي ديك) : هناك جلجامش الذي يبحث عن الخلود . . . ولكن هناك أوليس الذي رفض الخلود ببساطة لانه يُفقد الحياة معناها ومتعتها اذ يجردها من الخوف ومن الاحساس بالخطر .

بعد أن قرأت هذه المجموعة ازداد احساسي بالخطر والخوف على أشياء كثيرة .

وتلك هي القضية !





الزيارة

صاح السجان خارج المهجع :

ـ سعد عبد الكريم . . . زيارة .

فقفز قلبي من النافذة ، وتبعته من باب المهجع ، الذي فتحتْ قفله القديم يدُ السجان الكسولة المعتادة ، ولحقتني توصيات السجناء الاربعين متداخلة ، فرحة :

ـ سلِّم ابو خلدون . . سلِّم

ـ لا تنس طشت الغسيل ، هذه المرة !

ـ بوِّس الصغير يا ابو خلدون . . .

خرجت نحو الممر الضيق ، الذي يفصل المهاجع عن باحة التنفس ، فأوقفني السجان آمراً : انتظر . ومضى يتأكد خلو الباحة من السجناء .

ليست الزيارة الاولى لي . . فقد مضى على مغادرتي المعتقل اكثر من عامين ، تخللتهما بعد تسعة اشهر من ايداعي السجن زيارات عدة . . غير ان هذه الزيارة ، المنتظرة ، كانت تحمل نكهة خاصة ، ومفاجأة جديدة ، اتفقتُ عليها مع زوجتي في اخر زيارة لها .

عاد السجان يحمل لهجته الآمرة :

ـ تحرك بسرعة .

تحركت ، دون اسراع ، نحو باحة التنفس . قلبي يوغل في الاضطراب . لاول مرة سأرى « خلدون » . يوم اعتقلت ، كان بطنها متكوراً بوضوح وهابطاً قليلا . ولدتْ ، وكبر خلدون . . ولم

أره . حاولتْ مرارا ـ في زياراتها ـ اقناعي باحضاره معها ، لكني امتنعتُ باصرار . في الزيارة الاخيرة ، خرَّ امتناعي فقبلت .

قطعت ، خلف السجان ، باحة التنفس ، وهبطت العتبة الاولى في الدرج النازل من الطابق العلوي للسجن . تدحرج قلبي ، واربكني اختلال تنفسي . كأنها الزيارة الاولى ! ما شكله يا ترى ؟ هل يشبهني أم يشبه امه ؟ أيناديني : بابا لحظة يراني ؟ المشكلة ، ان لاوقت للتعارف هنا « فالاكل بالميزان والزيارة بالثوان » ليتني ما قبلت زيارته !

انسحب الدرج خلفي ، وتركني السجان منعطفا نحو غرفة مجاورة ، فواجهتني شباك الحديد المعدة للزائرين .

لم استطع مرة الفوز بلقاء في غرفة الزيارات الخاصة . لقاء الغرفة للقلة المدعومين ، وانا واحد من الاكثرية التي تنحصر زياراتها خلف بابين من القضبان ، يقف بينهما شرطيان يجمركان الحديث الداخل والخارج !

خطوتُ نحو قضبان الباب الاول فخرجتْ ، من الغرفة خلف قضبان الباب الثاني ، زوجتي ، تمسك يد طفل صغير ، ساحر ، يغرق رأسه بقبعة حمراء تطاولت مقدمتها ، ويخرج ساقيه البضتين من بنطال قصير ابيض ، مزنر بحزام تهدل من جنبه مسدس صغير ، يخطو مقصّرا عن امه قليلا ، مندهشاً من جعجعة الاصواتَ المتزاحمة ، المتبادلة بين السجناء واهاليهم ، يوزع ، دون تركيز ، نظرات حائرة وجلة .

قرفصتُ ، حين دنا ، وناديت :

ـ بابا . . خلدون بابا .

فاجأه النداء ، فالتفتَ مستغرباً ، اليَّ ! دائرتا عينيه ،

الصغيرتين ، السوداوين تنغلقان على تساؤلات لا املك اجاباتها .
مددت يدي ، من خلل القضبان بقطعة بسكوت احضرتها معي :

ـ خلدون ، خذ . . انا بابا !

لبرهة ظل واجماً . ثم ارتد ، حرناً، خلف امه . شدَّ ثوبها ، واطلَّ بوجهه . حدقتُ فيه ، وابتسمت . . فغطى وجهه محتجاً . انحنت امه ، تحاول معه ، فالتصق بها اكثر مراوحا في مكانه .

قالت امه :

ـ دعه يا سعد الان . . واسمعني

تجاهلت طلبها ، وتابعت المحاولة ، صاحت ، ، برفق ، مؤنبة :

ـ خلدون . . ! سلِّم على البابا الحباب !

صاح صوته المطمور في ثوبها :

ـ ما بدي . .

ـ خلدون حبيبي هادا بابا !

ـ ما بدي . . . ما بدي . . بدي غيرو !

ضحكتْ امه ، وضحكتُ معها . من أين لنا بـ«غيري»!؟

كنت ما أزال مقرفصا أتأمل حائراً خلدون المختبيء وراء نصف امه ، الذي بدا مقطَّعا بقضبان الحديد ، حين فكرتُ باستخدام سهمي الاخير لاصطياد ودِّ هذا « الازعر » . ندهتُ وانا اهمُّ بالوقوف : خلدون . . فلما لم يجب ، تابعتُ لعبتي :

ـ طيب انا زعلان منك يا خلدون . . انا رايح

واستدرتُ ، أمثِّل المغادرة . خطوت خطوتين ، ثلاث . . . والتفت، لم اره ! كان ما يزال يتبرَّم خلف امه . صاحت، لحظتها ، زوجتي مستاءة من اللعبة :

ـ سعد! دع خلدون! انتهى الوقت. عندي كلام هام أقوله لك!

فطنتُ ، فاقتربتُ متلهفاً :

ـ هيا قولي . . ما هو ؟

صاح السجان الواقف قرب الشبك :

ـ عبدِ الكريم . . انتهت الزيارة .

بوغتُ بفرار الوقت ، فرجوته قائلا :

ـ لحظة . . لحظة .

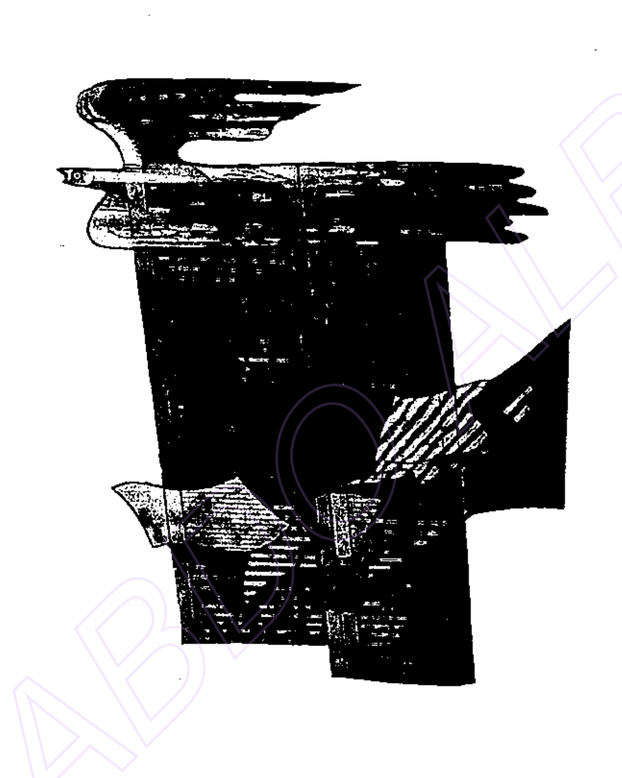
علا صوته رمادياً ، ثقيلاً ، ناهياً :

ـ عبد الكريم ، اقول لك انتهت الزيارة . . فهمت ؟!

فهمت . ادركت تهديده بقطع زياراتي القادمة ، ففهمت . انسحبتُ للخلف ، فاستلقى الدرج الحجري تحت قدميّ . صعدت ، والسجان خلفي . قطعت باحة التنفس ، مصغياً الى نشيد الاقدام الاربعة في الباحة الخالية . وكدتُ ادلف الى المهجع ، لحظة لمع في ذهني السؤال :

ـ ما الذي كانت تريد أن تقوله لي ؟!

ايار / ١٩٨٦





المقبرة

يزعق منادي الموت « ترحموا عليه يرحمنا ويرحمكم الله . . . سامحوه يسمح عنا وعنكم الله » فيكسر زعيقه ، الخارج من مكبر الصوت ، هدأة زنزانتي وتتلقفه اذناي اللتان كبرتا ، في ضيق الزانزانة وفراغها ، وباتتا مستقراً لاية نأمة تندّ عن قبو المعتقلٍ ، أو تأتي من خارجه !

ولضيق الـزنزانة وفراغها ، رحت اقطع الوقت : مرة ، بانتظار تكبير المؤذن ، في الجامع قرب المعتقل ، مرات خمسا . ومرة، بترقب نداءات بائع البوظة ، الذي يصادف مجيئه بعد وجبة الغداء تماما . ومرة ، بالتنصت على مشاجرات النسوة من السكان المجاورين ، التي كانت تصلني ، غامضة ، كل مساء .

وبلعبتي هذه ، التي ابتكرتْها حاجتي المفتقدة للآخرين ، صرت الهو ، مبعدا عني وحدتي التي اضنتني بخفافيش الوساوس والاوهام .

غير ان زعيق المنادي ، هذه المرة ـ والذي اتخيله يركن جوار الجثة في سيارة دفن الموتى ـ قد طيّر الخفاش من المقبرة ليحط فوق رأسي !

ومع الخفاش ، جاءت « عناد » الي ، فضحكت . دخلتْ ، هي الاخـرى ، زنزانتي وحطت فوق رأسي ! تذكرت خوفها ، ودهشة عينيها ، وحيرتها . . فضحكت .

لا ، لم تمت عنـاد ، ولا مت انـا . مازلنـا احيـاء ، نعم ، مبعـدين . . ولكنّـا احيـاء . لم يتغـير شيء ، قبل ان اعتقل ، كنا مبعدين ايضا ، احياء مبعدين ! هي في منزلها بانتظاري ، وانا متخف

في حارات المدينة ، في شوق اليها ، مطارد من اشباح ملأت المدينة ، تجوب الشوارع وتداهم البيوت . . . . بحثا عمن انا منهم ! .

تخفيت ، والتخفي يخلق الشوق ، فاشتقت ، اشعل اشجار قلبي ، فاحترقت في غابته . فكرت : اراها ! لمرة واحدة فقط ، اراها . اضمها ، ابوح لها بكل شيء ، وأتوارى . لا بد ان اراها . لست حجراً . يوم ابلغوني ضرورة التخفي ، لم اتمكن من رؤيتها . امر التخفي كان فوريا ، فطرت من غرفتي ، وظلت في جمرا يحرقني . نعم، نبّهني الرفاق ان احاذر في تحركاتي ولقاءاتي . . واكّدوا عليّ - حين اشتدت حملة الاعتقالات - ان امتنع عن التنقل ، دون ترتيبات تصلني ، مسبقا، بالبريد السري . . . لكنني لست حجراً . تعميمات الرفاق لا تأخذ الاشواق في حساباتها ، وانا فاض بي الشوق ، طفح عن قلبي وملأني . لا يعرف الشوق الا من يكابده ، هم لا يعرفونه ، وانا اكابده !

رسوت ، بعد طول تردد ، على برّ القرار . وضعت ترتيباتي الخاصة واقنعت نصفي المتردد : انت ان رأيتها ، متّ ، وان لم ترها مت ، فرها ، ومت . فاقتنع ، ورسوت على برّ القرار .

رأيتها ولم امت !

كان القمر ، في تلك الليلة ، مبعدا من السماء ، والبيوت دفنت انوارها ، وخلت الحارة الضيقة ، خلف منزل عناد ، سوى من العتمة والصمت وبعض القطط .

حين التقيتها ، سارعتْ بالقول :

- كيف تخاطر بالمجيء يا سعد ، وانت الحذر دوما ؟!

- لا ادري ! قلت أراك مرة ، فقد اعتقل . . واذا حدث ، فلسنوات طويلة ، كما تعلمين .

التصقت بي ، وتلفتت يمنة ويسره ، بادرتها :

ـ عناد . . . وقوفنا هنا خطر . اتذهبين معي ؟

اجابت بلهفة :

ـ نعم . ثم استدركت : الى اين ؟

ـ أسألك ، اتذهبين معي ؟!

ـ نعم ، لكن الى اين ؟!

همست ، مشيرا بيدي :

ـ هناك ، الى المقبرة .

قرصتها فكرتي :

ـ المقبرة يا سعد !!

ماءت قطة قربنا ، فخدشت أمان السكون .

ـ عناد ! لا وقت لدينا نضيعه . .

ـ اعرف يا سعد . . ولكن غير المقبرة ! غرفتك مثلا . .

ـ تقولين غرفتي ؟ عجيب ! ملاحق ، واذهب الى غرفتي !

ـ اقصد . . منزل احد اصدقائك ، معارفك ، ليس من المعقول ان نذهب الى المقبرة !

علت اصوات قطتين تتشاجران ، فضقت بالوقوف .

ـ عناد ، افهميني . ليس من امان مثل المقبرة ، لدي الكثير لاقوله لك . الوقت يمر . كل البيوت والطرقات « مشموسة » .

ـ يستحيل ، يا سعد ، يستحيل .

صرخت مرغما :

ـ ما المستحيل ؟! اقول لك لا استطيع الحديث معك هنا ! اتفهمين ؟

لا ادري ان فهمت ، غير اني قسوت . احسست اني قسوت ، أو

ربما شعرتُ بالحصار ، فصرخت في وجهها . انا نفسي غير مقتنع ، تماما ، بالذهاب الى المقبرة . . لكن ماذا افعل ؟ كل الاماكن الان ، تخفي خطرا .

لبثنا ، لحظات ، صامتين . أثقل الصمت صدري . نظرت الى وجهها ، كان حزينا دهشا ، خائفا ، ومترددا . حاولت ان اعتذر :

ـ عناد . . . .

ـ لا تقل شيئا . قاطعتني وابتسمت ، ثم اضافت : لنذهب الان . . . ولكن اقسم انك مجنون .

قفزت قطة تعدو ، وعدا خلفها آخر ، فعمَّ السكون الأمين .

ـ وأنا اقسم ، أيضاً .

كانت المقبرة تبعد عن الحارة الضيقة ، خلف منزل عناد ، مسافة حارتين وشارع قصير . نبّهتها ، قبل ان ننطلق : « كوني حذرة . لو حدث وداهموني في الطريق ، تابعي سيرك دون توقف . لا تضطربي ، ولا تعيريني انتباها . لن يوفروك ابدا لو اكتشفوا علاقة بيننا » ثم انطلقت . باعدتُ بيني وبينها ، سرت امامها خطوات ومشت اثري . مضيت دون ان التفت اليها . وقع اقدامها ، ونحنحاتها أحيانا ، كانت تنبئني انها تتبعني .

وصلنا المقبرة بسلام . كان بابها مغلقا . انعطفتُ يمينا ، ادور حول المقبرة . في جدارها الخلفي ثغرة تسمح بتسللنا . رحت اتذكر : « كم عفرتنا ، انا وحسن ومحمود وعبد اللطيف ، حين كنا صغارا ، في هذه المقبرة . لم نخش الدخول اليها ، واللعب فيها . . كانت مأوى لشقاوتنا ، واحلامنا ، واسرارنا . اذكر ، حين كنت الطأ خلف قبر ناء ، في لعبة الابطال والحرامية ، تداهمني رغبة ان اخفي فتاة ، اية فتاة ، خلف القبر بعيدا عن اعين الناس ، واشبعها قبلا

وعناقا حتى مطلع الفجر . . فأظل في عناق ، اسرح مع اللذة ، ناسيا اللعبة وابطالها وحراميها ، وانا لاطىء مع فتاة احلامي ، خلف القبر النائي . . ثم بعد برهة ، انتبه الى ان اصدقائي غادروا المقبرة ، بعد ان جهدوا ـ كما اعلم في اليوم التالي ـ في البحث عني ، وتركوني وحيدا مع اشباح القبور ، البيضاء المنتشرة فأقفز راكضا ، والخوف يلاحقني » .

وصلت الثغرة . تلفتّ ، رأيتها تقترتب ، بتردد ، مني . . انحنيت ، وخطوت داخل الثغرة . استدرت ، فلاحت ساقاها ملفعتين بالثوب الوردي ، ، بينما اختفى نصفها الاعلى ، خلف جدار الثغرة العلوي .

مددت يدي :

ـ ادخلي . . هيا ، ادخلي .

امسكت يدي ، انحنت ، ودخلت .

وقفنا متجاورين . كفها ـ الصغيرة المرتعشة ـ تذوي داخل كفي . للحظات ، بقينا صامتين . عيناي ، الوجلتان ، تنتقلان من قبر الى قبر . كفها المرتعشة ، داخل كفي ، تزيد من اضطرابي .

كانت المقبرة كئيبة الى حد رهيب . سكونها ، موحش ومفزع . مجللة بالظلام الأبكم ، وموشاة بالقبور الكلسية ، البيضاء ، المتنافرة ، الممددة ، بفوضى ، بعضها قرب بعض ، تفصل بينها ممرات ، سوداء ، ضيقة ، تتسع لاقدام اشباح الموت التي تظهر وتختفي ، بين لحظة واخرى .

كان العرق المتصبب على وجهي قد ابترد ، حين استدرت ـ دون ان انظر الى عناد ـ وقد فرغتُ ، سوى من سكون المقبرة . اتكأت بيدي على الجدار ، اخرجت رأسي من الثغرة وخطوت ، بساق

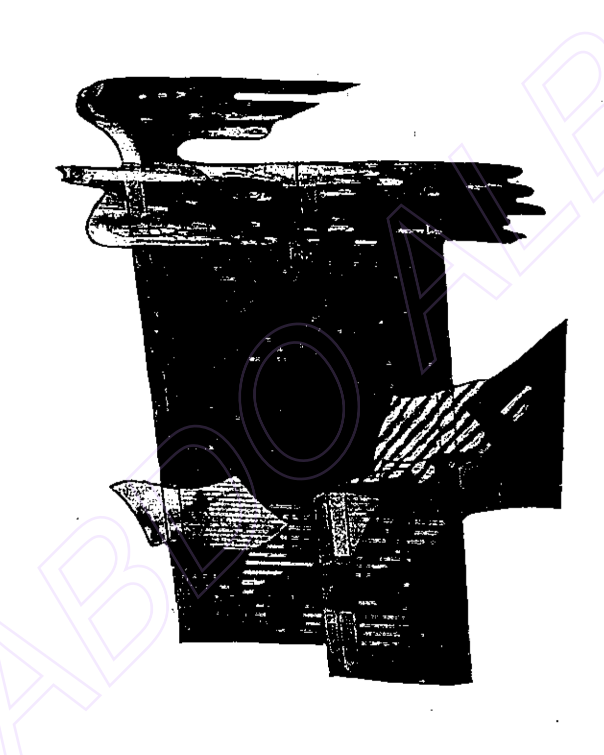
واحدة ، خارج المقبرة في حين ظلت الاخرى داخلها .

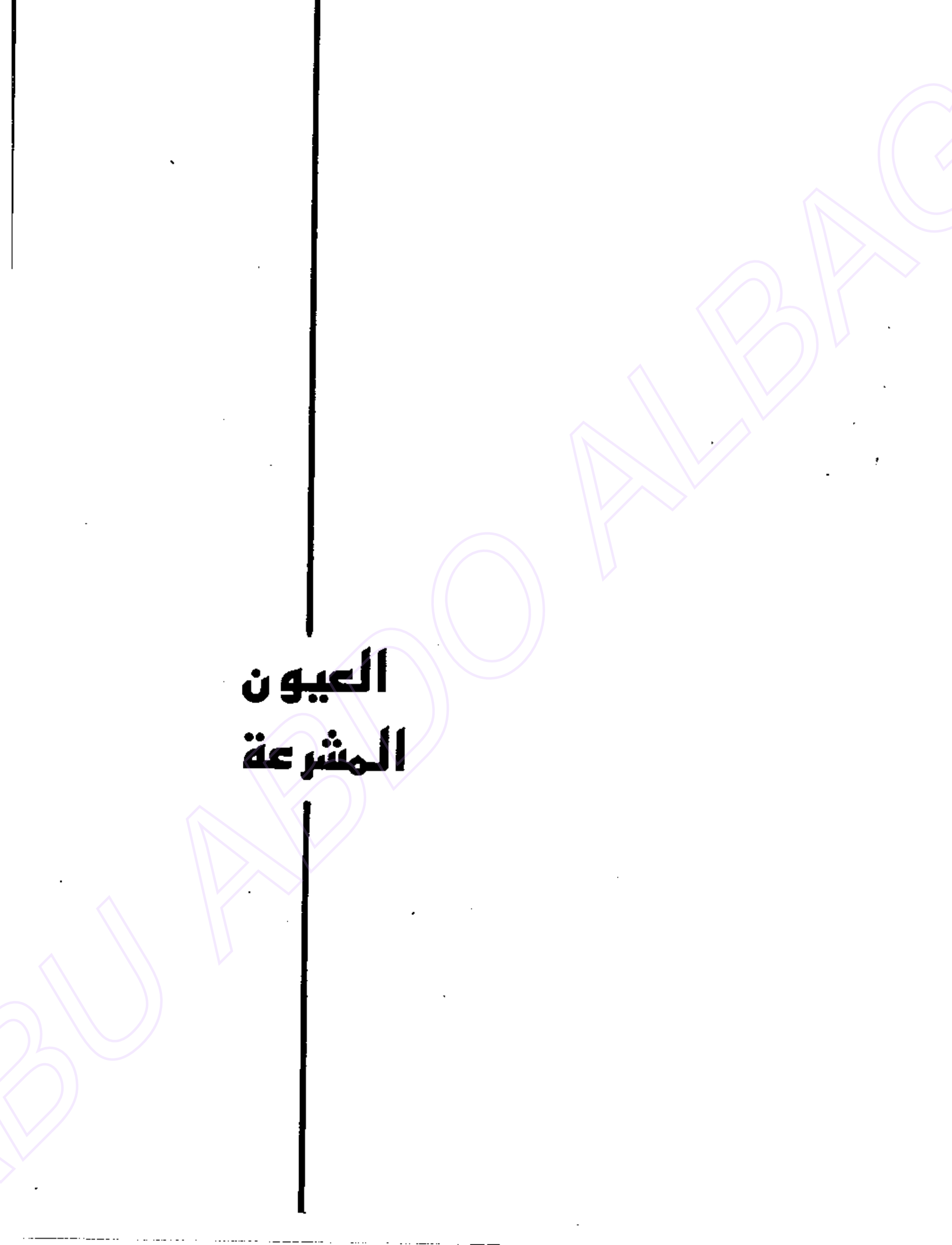
بغتـة ، قفزت من عناد صيحة رعب رفيعة ، مكتومة ، نخرت عظامي : « سعـعـعد » .

تجمدت مكاني !

كانت المـدينـة خارج المقـبرة ، في تلك اللحظة ، كئيبة الى حد رهيب . سكونها موحش ومفزع . مجللة بالظلام الابكم ، وموشاة بالبيـوت الاسمنتيـة ، الكـالحـة ، المتنافرة الشاخصة ، بفوضى ، بعضها قرب بعض ، تفصل بينها ممرات ، سوداء ، ضيقة ، تتسع لاقدام الاشباح التي تجوب المدينة ، بحثاً عن المطاردين المتخفين ، فتظهر تارة وتغيب اخرى .

تموز / ١٩٨٦





العيون المشرعة

كنا نهمُّ بالعودة الى القبو ـ بعد ان انتهى دورنا في المرحاض ـ حين ناداني السجان ، ومد الّي ورقة نقدية قائلا :

ـ خذ . خمسون ليرة ، حضرت زوجتك اليوم وارسلتها لك .

نترتُها ، وطرت باتجاه القبو .

ـ يا شباب . . . جاء الفرج !

صاح مجد باشاً :

ـ كم المبلغ ؟

رفعتها كصيد ثمين :

ـ خمسون . خمسون ليرة .

لم اتساءل كيف عرف مجد ان ما احمله هو مبلغ من المال . فالفرج ، في حصار القبو وتراكم العرق والدهون على اجسادنا ، كان يعني لنا ـ نحن نزلاء القبو العشرة ـ وصول اي مبلغ يتيح لنا شراء الصابون او سراويل جديدة عوضا عن تلك التي انتنت تحت الياتنا . ولطول الايام التي قضيناها دون حمام أو تغيير ملابس ، مذ أُخرجنا من الزنزانات وحشرنا في هذا المتكور تحت الدرج : القبو ، شاعت تسميتنا بـ« جماعة الريحة » ، بحيث صار السجانون ينادوننا بها :

ـ « تحركوا يا جماعة الريحة الى المرحاض . . »

ـ « هل ارتجت باب القبو على جماعة الريحة ؟ »

ـ « هات لي واحداً من جماعة الريحة ! »

ولسبب لا ندركه ، لم نكن نستاء من تسميتنا المبتكرة هذه ، بل كثيرًا ما كانت تثير ضحكنا ونحن نعبر الرواق بين صفين من السجانين يكتمون انفاسهم في ذهابنا وايابنا ، صارخين بطابورنا كي نسرع الخطو .

تركت نزلاء القبـو ، الذين عمَّ الهرج بينهم وبشّت وجوههم ، وانزويتُ في ركن ، افتش عن انامل زوجتي ـ التي لا بد التصقت على الخمسين ليرة ـ . . . . رائحة حقيبتها ، أو ربما وجهها الذي اختفى خلف الدائرة أو قرب الصفر .

قلبت الورقة ، فذهلت ! !

على المساحة الدائرية البيضاء ، قرب صورة القلعة تماما ، قرأت جملة ، كُتبتْ بخط اعـرفه يقيناً : « من ام خلدون الى ابو خلدون الحبيب » ! هذا خطهـا ! خطهـا لا محالـة . ليس حلما ابـداً . من انحناءات الاحرف ، وانكسار الالف ، وتعرج النون . . عرفته ! من رفع « الاب » الذي طالما شاكستها ـ في رسائلها القديمة الي ـ على ضرورة جره . . عرفت خطهـا ! كانت هي ، وقــد توزعت على احرف ، ودخلت قبوي !

بغتة اكفهر وجهي بعد قراءة جملتها . طفا الغم واغرق الفرج : كيف انفقها ؟! تبخرت رائحة العرق ، فجأة ، فلم اعد اشمها . وانجلى النتن ، فلا احس به . تلوَّن القبو بالفرح : ليست خمسين ليرة لبضعة سراويل ، ُهي خمسون جدولاً لقلبي . . فكيف اهدرها ؟! .

للحال ، واريتها جيبي ، فأحسست بالخديعة ! سامر لم يتردد ، يوم اعتقلنـا ، عن انفـاق المـائـة ليرة التي كانت معه ! اخرجتها ، مذعوراً ، من جيبي ، وعدت فقرأت « من ام خلدون الى . . . . »

انا ايضا لا اتردد . لكنها رسالتها الي ! لاول مرة بعد زمن طويل من التشتت ، تجتمع العائلة الصغيرة معا : خلدون وامه وانا ، فكيف ابعثرها ؟! .

« لا وقت للعواطف يا ابا خلدون » هكذا سيقول عبد الحميد لو علم . حقه . فعلا لا وقت للعواطف ! هو لم يقصّر ابدا ، فهل اتلكأ انا ؟! قبل ساعة كنت اكثرهم تذمرا من رائحتنا العفنة واتساخ ثيابنا ! ولكن . . هل ضاقت الدنيا الى هذا الحد ؟ يعني ، خمسون ليرة لن تفك اسرنا ، وحتى لو . . . فهم لن يقبلوا . نعم . اعرفهم . لن يقبلوا ، لو علموا ، التفريط بها !

لذا ، ساخبرهم . نعم ، سأخبرهم ، وينتهي الامر . ثم . . . ثم ما يدريني ان تصل يد سكير ابله ، يولجها بين ثديي غانية رخيصة ، مقابل دقائق على طرف سرير عفن ؟! يعني لولا كتبت ام خلدون لما فكرت في الاحتفاظ بها . غير انها كتبت . كتبت ووصلتني . نعم سأخبرهم . . سأخبرهم .

نهضت من زاويتي ، فداهمني لغطهم . كانوا يتشاورون فيمن سيقرع باب القبو ويطلب من السجان السراويل .

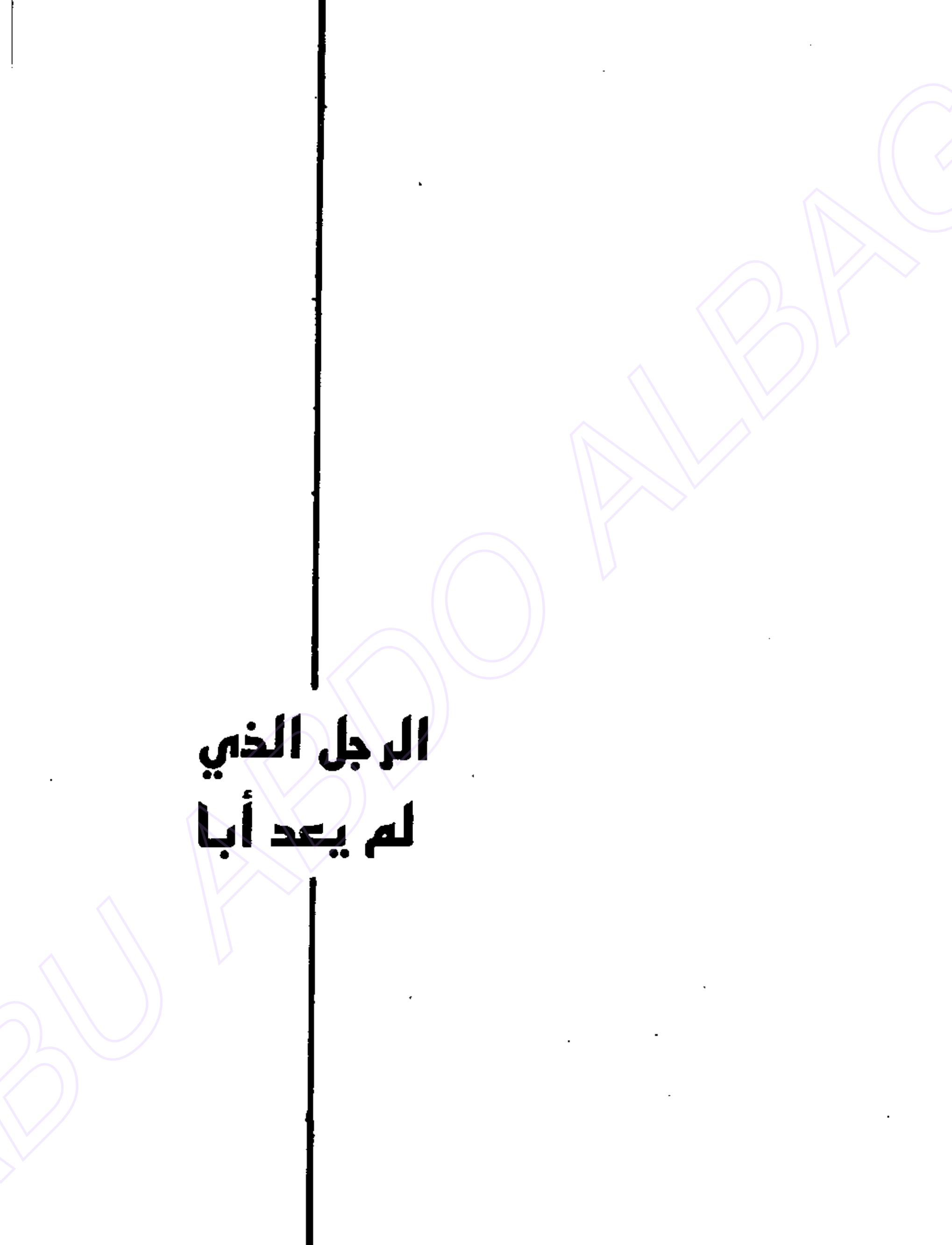
ناديتهم ، مختنقاً بصوتي :

ـ يا شباب . . . .

التفتت العيون نحوي ، فأفزعتني !

لا ادري لم فزعت . ولا فهمت ما باحت به . . غير اني ـ في لحظة ـ لمحتها كلها : بعضها كان مشرعاً ، وبعضها موارباً ، وبعضها غائماً . ثم وجدتني ـ دونما وعي ـ انخرط معهم بحثا عمن يقرع الباب .

ايلول / ١٩٨٦



الرجل الذي
لم يعد أبا

هل حدث معك أن اكتشفت، فجأة ، انك لست أباً لابنك ؟ وقبل ان تتسرع في الجواب ، أود الايضاح بانني لا اقصد بـ« الاكتشاف » ما يحدث في الافلام المصرية ، حين ينادي البطل ابنه الشاب ، وهو على فراش الموت ، فيبكي وينوح ويندب امامه ، ثم يخبره بتراجيدية شكسبيرية بأنه « ليس أباه . . بل امه » !! لا اقصد هذا بالطبع . . بل أعني هل حدث معك ما حدث مع « نذير رحيم العمر » الذي اكتشف ، فجأة ، انه لم يعد ـ بعد ان كان ـ أبا لابنه ؟!

أقول : « بعد ان كان » . . لانه فعلا كان أبا لابنه خالد ، وخالد هو ابن نذير واسمه ـ حتى كتابة هذه القصة ـ ما زال مسجّلا في دفتر العائلة هكذا : « خالد بن نذير رحيم العمر » نعم . . ومريم رحيم العمر ـ ابنة عم نذير قبل الزواج ـ هي زوجة نذير ، لم تتزوج أحداً قبله ، ولا تزوج هو غيرها . . يشهد بذلك دفتر عائلته الذي خلت صفحاته المخصصة للزوجات من اسم أي امرأة اخرى غير مريم .

الحاصل . . أظن ان الموضوع واضح لا لبس فيه . اعني تناسب وتسلسل القرابات في عائلة المواطن نذير رحيم العمر ، اللهم . . الا في هذه المشكلة الطارئة التي اعترضت حياة العائلة ، أو حياة نذير ، أو لنقل بتحديد اكثر علاقة خالد بأبيه نذير ، حيث اكتشف هذا الاخير انه لم يعد أباً لابنه بعد ان كان . . كما اخبرتكم ذلك !

ولا أخفيكم ، بأن هذا الاكتشاف ما كان ليثير مشكلة في حياة

نذير لو بقي ضمن حدوده المعقولة . . غير انه تجاوزها كثير ! بل هو وصل في الاونة الاخيرة الى درجة الفشل المروع والمحزن حقا ! هذا الفشل الذي خلق مشكلة ما كانت لتخطر على بال نذير أو أي من اصحابه أو اقربائه . وكيف يمكن ان يخطر على بال احد أن رجلا مثل نذير يمكن ان يفشل في اقناع ابنه انه ابوه وان خالدا . . هه ، فطنت ! مازاد في تأزيم المشكلة اكتشاف خالد ، المفاجىء ايضا ، ان أباه ليس أباه . . أعني ان هذا « الرجل » الاصلع الذي لا قبعة على رأسة ولا لحية لذقنه ولا نظارات سوداء على عينيه ، ليس أباه !!

قد تقولون الآن : « بسيطة اذن . . فاختلاف الشكلين هو علة المشكلة » . أنا مثلكم ايضا ، ظننت كذلك في بادىء الامر . لكني عرفت فيما بعد ان نذيرا حاول كثيرا واستخدم الف اسلوب واسلوب ، صبر وتحايل وناور . . حتى انه ـ بعد ان عجز وكاد ييأس ـ التحى وتقبَّع وتنظَّر . . ولكن دون جدوى ! ظل خالد ينظر الى نذير مثلما يناديه : « عمو » وفي احسن الاحوال ، لفرحه بالهدايا ، كان يضيف كلمة : « الحباب » فيصير نذير : « عمو الحباب » ، أما ان يصبح : « بابا » كما تاق نذير وتحرَّق لسماعها . . . فعبثاً ! بل تصوروا ان خالداً لم « يخطىء » يوما ـ ولو لمرة واحدة ـ في مناداته : «بابا» كما كان ينادي اباه الذي في الصورة المعلقة على . . . هه ، صحيح ! نسيت مرة اخرى !! كيف لم اخبركم قصة الصورة وهي لب المشكلة ؟! اعني دورها في المشكلة أو بالاحرى ، دور مريم التي علقت الصورة على الجدار في غياب زوجها . فمريم هي اساس المشكلة ان جاز لي التحديد . على كلٍ . . كائنا من كان لب المشكلة أو اساسها أو سببها فلن احشر نفسي في تعيينه او تحديده . اترك ذلك لكم ، لاخبركم بان الصورة هي صورة عادية جدا . صورة مثل كل

الصور اخذها نذير ذات يوم حين كان مطلوبا ومتخفيا ، يظهر فيها متنكرا بقبعة ولحية ونظارات سوداء . ثم بعد زواجه من مريم كبّرها وركنها على ظهر الخزانة في جملة رسائل واوراق واشياء كثيرة خاصة به . نعم . . وظلت الصورة ـ كما تفيد مريم ـ مركونة هناك حتى جاء ليل ٢٥ آذار عام ١٩٧٩ وقاربت ساعته الواحدة . في تلك الليلة ، تقول مريم ، قُرع باب غرفتهم بعنف وتتابع ملح ـ وهو نفس القرع الذي بات شائعا في البلاد ـ فتح نذير الباب ليباغت بحوالى ستة او سبعة عناصر مسلحين ، داهموا الغرفة ، قلبوها فوقاني تحتاني ـ كما يقول نذير ـ ثم اخذوه مع بضع اوراق وصحف سرية وكتب ذات اغلفة حمراء ، تاركين مريم وبطنها المنتفخ (تقول مريم انها كانت في الشهر التاسع من الحمل والحادي عشر من الزواج) الذي راح يعلو ويهبط مع شهيق قلبها وزفيره . المهم ، مالنا بالطويل . . مضى نذير معهم تاركا زوجته واشياءه الخاصه وفي جملتها صورته تلك التي ساهمت ، فيما بعد ، في خلق مشكلته التي نتحدث عنها .

ولا شك ان ما حدث مع نذير في تلك الليلة ليس جديدا عليكم ـ فانتم تعرفونه لا بد من جيرانكم أو اقاربكم أو احد افراد اسرتكم ـ غير انني أود ان اضيف معلومة صغيرة ـ ربما كنتم تجهلونها عنه ـ وهي ان غياب نذير عن البيت لم يكن خمس دقائق ، كما اقسم رئيس العناصر بشرفه ، بل غاب اكثر من ذلك . . تحديدا ، ثلاث سنوات .

بُعيد غرق نذير في الظلمة معنكباً بالعناصر المسلحة ، ركضت مريم ودخلت البيت ، بعد ان شيعته حتى الباب الخارجي ، وكأنها صحت مما يشبه الكابوس ، طلعت على كرسي خشبي ، سحبت من بين كدسات الاوراق والكتب والمجلات صورة نذير التي كانت

مغبرة ، مسحتها بصدرها الضامر ، ثم تأملتها فرأت بها يشبه احلام اليقظة انها تنتزعه منهم ويعود اليها . تبّلت لحيته وقبعته ونظارته ، وانسلت الى الفراش الذي كانا فيه قبل قليل ، ثم ضمته الى جسدها ، فلم يعد يفصل بينهما سوى كتلة لحمية منتفخة كالبالون ، ذابت بعد حوالى عشرة ايام ، وتحولت الى من صار اسمه فيما بعد : « خالد » .

ودون الذهاب مع مبالغات نذير بأن المشكلة بدأت ساعة الصقت مريم صورته الى بطنها ليلة اعتقاله ، وان ابنه قد تعرف على الصورة حتى قبل ولادته بحيث نُقشت في عظامه ودمه وعقله . . فان المشكلة ، في الواقع ، ولدت بعد ولادة خالد ، ومن ثم راحت تنمو معه في البيت .

ما يؤكد هذا الاعتقاد أن مريم كانت ، طوال سنوات اعتقال زوجها ، تشارك صورة نذير في الكبيرة والصغيرة : وقت إرضاع خالد كانت تمدده على السرير وتعطيه الرضّاعة بعد ان تقرِّب قليلا صورة ابيه فيلهو بالتحديق بها وهو يمص حليبه . وان بكى تلاعبه بالصورة فيلهو بها وينسى بكاءه . في الشهر العاشر من عمره علمته : « با . . . با » قبل ان تحفّظه : « ماما » ويوم احتفلت مريم بعيد ميلاده الاول لم تكن الصورة اقل حضورا من صديقاتها واصدقاء نذير ، بل شاركت الصورة في أكل الحلوى ايضا ! . . . وهكذا ، كان خالد يكبر وتكبر معه الصورة : يزعل ابوه الذي في الصورة ان هو كسر صحنا أو آنية . . ويفرح منه ان كان حبابا يأكل صحنه كله . يودِّعه من النافذة قبل ذهابه الى الروضة ، ويستقبله ظهراً بالالعاب والحلوى . يجلس مع خالد وامه الى « صدر » الطعام ، ويغفو بينهما ليلاً على الفراش . ما من بارودة أو طابة أو كتاب ملون

أو سعدان أوفيل الا ـ يقول خالد ـ وان اباه قد اشتراه .

وبالطبع ، فان مريم هي التي كانت تفعل ذلك : يجيء خالد من الـروضـة ، فيركض الى امـه يسألها ملهوفاً : « ماما شو جبلي البابا اليوم ؟ » فتجيبه متخابثة : « مابعرف . . اسأله » وقبل ان تتم كلامها يركض الى ابيه . . اعني الى صورة ابيه المركونة على الطاولة ، يسأله ولا ينتظر جوابا . يزيح الصورة فيرى دباً أو كتاباً أو قطع سكر ، فيقبّله على عجل ، ويطير الى رفاقه في الحارة يتباهى امامهم بما اشتراه له أبوه !

كم من مرة ـ تقول مريم ـ كان يشاكسها ، بعد ان كبر ـ فتهدده بأنها ستخبر أباه وسيزعل منه ، فتراه انصاع وحلّفها الا تقول لابيه ! بل كم مرة كان يشكوها لابيه !! نعم . . كثيرا ما رأته ، في غفلة منه ، يقف امام المراة ويحكي باكياً متلعثمًا كيف لم ترض امه ان يلعب مع رفاقه في الحارة أو لم تشتر له بوظة ، أو لم تأخذه الى المراجيح !!

ومن طريف ما روته مريم ، وما يعيننا في تبيّن استفحال المشكلة ، امها في مرة رأتـه في الحـارة ، زجـرته وادخلته البيت ، فراح يبكي صاراخـاً : « والله يا مامـا البابـا سمحـلي العب » فتنـدهش امـه وتكذّبه . لكنه يصرّ ويهرع الى الصورة يُشهدها : « بابا . . مو انت سمحتلي العب بالحارة ؟ » وتصادف ان تهتز الصورة بفعل حركة يد خالد على الطاولة ، فيلتفت الى امه متشفياً : « شفتي . . هو سمحلي ! »

. . . وهكـذا ، انقضت سنـوات ثلاث أخـلى السجن بعـدهـا سبيله ، لكن الصورة ظلت تعتقله !

وكما يحدث بعد اعتقال طويل ، عانق نذير مريم وبكى ، وعانقته طويـلا وبكت « لكني ـ يقـول نذيـر بأسى ـ حين التفتُ الى خالد

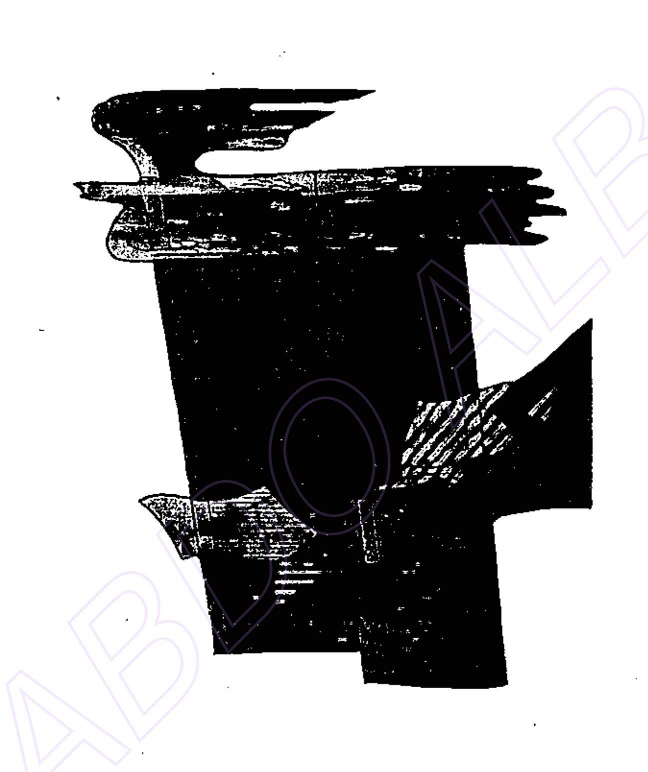
وضممته الى صدري أحسست حجرا بيني وبينه ! احسست دهشته المخيفة من عناقي لامه ربما ، او من بكائها ربما ، او من شيء ما زلت اجهله . . لكنني احسست اني اشدّ نابضاً الى صدري ! انسفحتُ عليه شوقاً فكان مثل صخرة بين يديّ ! »

بلى ، حاول نذير بعدها كثيرا : استعان بمريم واصدقائه واقاربه . ودَّعه من النافذة واستقبله بالالعاب والحلوى . قلَّد كل ما فعلته الصورة في غيابه . . . دون جدوى ! نصحوه بأن الزمن دواء ، لكنه كان داء يستفحل ، وتتعدد اعراضه حتى باتت مريم ، ايضا ، ترى في عيني خالد شكاً واتهاماً ، أو نظرة تشي ولا تقول : « انت كذابة يا ماما » .



لا استطيع ان اخبركم ماذا حدث بعد ذلك ، فقد انقطعت اخبار نذير عني بعد انتقال عائلته من دمشق الى حلب . غير اني سمعت من شخص يعرفه هناك ان خالداً ما زال يلعب بالحارة ويتشاقى مع رفاقه . وانك ـ يضيف الشخص ـ اذا ما صادفت خالداً وسألته عن ابيه فلن يقول لك قط انه غير موجود ، ولن يتردد ابدا في ان يطير امامك الى باب الدار يقرعه بتسارع وشدّه ، وحتى حين يصادف ان يفتح نذير نفسه الباب ، فانك سترى خالداً يدفعه جانبا ، وينسلّ الى الغرفة راكضاً ، يقفز فوق كرسي ويقول باشاً فرحاً لابيه الذي في الصورة « بابا اجو رفقاتك . . اجو رفقاتك » . .

آذار / ١٩٨٧





رائحة
الخطو الثقيل

ارتطمتْ بالخبر وكادت تسقط في تكذيبه ، لولا أن أعاد قوله مؤكداً :

ـ بلى . . كما قلت لكِ . . وافق الشباب على لقائك به ، وكلّفوني ترتيب موعد معك .

ـ طيب . . متى وكيف ؟؟

قالت تستعجله الكلام وقد تراجع اصفرار وجهها أمام حمرة داهمة تزيّت بشوقها .

ـ غدا أو بعد غد . . حسبما يتناسب . .

ـ لا ، غدا .

بترت كلامه المبطء ، فقال مهدئاً :

ـ تمهلي سلمى . . تمهلي . غائب عنك منذ سنتين . . استعجلت الان ! !

ابتسمت مناكفة :

ـ ومنذ سنتين وأنا مستعجلة . . مستعجلة خلقة !

ـ يا ستي استعجـلي على كيفـك . . الا في مثل هذي المواعيد ، فالعجلة تكلفك وتكلفه غالياً !

زفرتْ ضيقا :

ـ جئت تحاضر بيّ !؟ أخبرني الان كيف أراه وأين ؟

ابتسم وداعة وهو يخرج قلما وورقة :

ـ اسمعي . ان كان اللقاء غدا فسيكون ليلاً . نظر الى ساعته :

حوالي هذا الوقت .

أومأت موافقة ، فرسم دائرة على الورقة وتابع يقول :

ـ تعرفين مشفى المجتهد (وضع شارة × داخل الدائرة) مقابله تقريبا حارة أو شارع صغير تفضي نهايته الى الميدان (رسم خطاً مستقيًا يتقاطع مع الدائرة) في هذا الشارع الفرعي . . . .

همست لهفة :

ـ عرفته . . هناك ؟

ـ لا . . انتظري ! في هذا الشارع انعطافان الى اليسار (قاطع المستقيم بخطين متوازيين متباعدين) دعي المنعطف الاول . . في بداية المنعطف الثاني ، على كتفه تماما ، بداية حارة ضيقة خالية من البيوت ، في نهايتها شجرة كينا ضخمة (رسم مستقيمين قصيرين متقاربين ، ثم علّم نهايتهما بما يشبه الشجرة ، ووضع شارة × بارزة) هنا . . تحت شجرة الكينا تماما . . ترينه .

هلَّ وجهها وفركت كفيها :

ـ عظيم . . اتفقنا . . . وفي أي ساعة ؟

شدَّ ابهامه الى سبابته :

ـ التاسعة ليلا . لا تتأخري دقيقة ولا تبكّري دقيقة . التاسعة تماماً .

حزمت شعرها الاسود الطويل خلف رأسها ورفّت جفنيها :

ـ حتما . . حتما .

نحّى الورقة والقلم جانبا ، وشابك بين أصابعه :

ـ والان . . انتبهي لي . . . .

قاطعته مستاءة ومدهوشة :

ـ محاضرة أخرى !!

دُهش من دهشتها :

ـ ومحاضرات . . ! يعني اعتقاله أفضل ؟!

نتأت ، للحظة ، مخاوف كانت خبيئة في لجة فرحها بلقائه . أردفت تطمئنه :

ـ أعني . . . فهمت التحذيرات من لقائي معه المرة الماضية . ثم راحت تقلد صوته وحركاته : لا تتأخري . . لا تخبري أحدا . . داري اضطرابك . . تيقظي لمن حولك . . حاولي أن . . . .

خطف الكلام منها :

ـ هذا ما أريد التأكيد عليه هذه المرة : تيقني ممن حولك في الطريق . يحتمل أن يكون بيتكم مراقبا بعد مداهمته اخر مرة . . ولذا ، تأكدي من أن أحداً لا يتبعك أو يراقبك . علامة الامان كما اتفقنا عليها مع « أبي عمر » محفظة يدك . فطن لعمر فأضاف : على ذكر عمر . . لا تحضريه معك ، ولكن خذي صورته فقد طلبها ابوه . المهم . . ان كانت محفظتك معلقة على كتفك اليمنى وسبحته في يده اليمنى أيضا . . كان لقاؤكما آمنا . عند أي تخمين أو توجس أو شك . . علقي محفظتك على كتفك اليسرى ولا تقتربي منه . . وهو سيحترز بنفس الطريقة . اتفقنا ؟

ـ إتفقنا .

أجابت وقد بهتت حمرة وجهها وعاوده اصفرار قلق خفيف .

ـ والان . . أنا ذاهب . تريدين شيئا ؟

ـ شكرا يا أبا ماجد

استدار بعد خطوتين :

ـ سلمى . . . حاذري ! هم لا يعرفون شكله حتى الان . . أنت دليلهم الوحيد .

ـ لا يهمك . سلِّم على الشباب .

لكنها ، ما ان قفلت راجعة ، حتى انزلقت في هاوية قلق لا تدري كيف داهمها !

★ ★ ★

عندما وصلت البيت ، كان النعاس قد سبقها الى الفراش ، فأسرعت ـ بعد أن خطفت نظرة اطمئنان على عمر ـ وارتمت في أحضانه . . . لكنه جفا !!

سُرَّت ، رغم امتعاضها ، من جفوته إذ نهضت ذُكريات ورؤى ايام كثيرة نأت . . فاستلقت على ظهرها ، وراحت مخيلتها تعدو خبباً مع الايام الماضية . . يوم تعرفت اليه . . ويوم تعاهدا على جذع شجرة ألا يفترقا . . ايام انتظاراته الغاضبة ومجيئها الملهوف .

أكبت على وجهها تهرب من ارق وشيك ، فتلاحقت الايام . . يوم زواجهما المفاجىء وذهول أهلهما . . يوم اختلفا وبكت كثيرا وأصرت ألا تبقى معه لحظة ، ولحظة ـ عند الباب ـ عندما تطلعا الى بعض ، وفاضا ، وانغمرا ، والتحما ، وذابا ، وارتعشا ، ثم خفتا ، وهمدا ، وسكنا مثلما يسكن عشق في قلبِ شقاه الحزن .

رمت الشرشف عنها ، وعاودت الاستلقاء على ظهرها . . فهبَّ ذلك اليوم الرهيب في عينيها كأنه الأمس ! ساعة داهموا البيت بحثا عنه ، وكيف قلبوا أغراضه ، وقلبوا ـ حينها ـ الفراش ، وكيف سرقتها ، في ظلمة رعبها لحظتذاك ، ابتسامة مباغتة :

« أيعقل أن يكون مجيد مختبئا بين شبك السرير والفراش !! » .

ثقل جفناها ، ولم يطبقا ! طمرت وجهها تتوسل نوماً . . فمدّت شجرة الكينا أغصانها من شبّاك مخيلتها ، فتعلقت بها وهبطت . . . رأت مجيدا يخرج من جذعها كأنما ولد للتو ، فضمته ومرغت وجهها

في صدره . . وبكت . ضمرها ، فغابت بين يديه . تسربت اليه تشم رائحة الصنوبر العابقة منه فاتسع بحور آمداء زرقاء مطرزة بحبيبات الشمس الحانية . . مضت به ومضى معها بصحبة شمس تأفل خلف افق بعيد كان واضحا ثم راح يتلاشى شيئاً فشيئاً ، في أحضان الظلمة . . . .

★ ★ ★

حين صفقت البـاب خلفهـا ، انفتحت في صدرهـا هوة المخـاوف والتـوجسـات من لقـائـه . سوّت ثوبها السماوي ، وركّزت شريط محفظتها على كتفها اليمنى ، وتأكدت من الوقت : التاسعة الا ربعا .

مشت تقطع الحارة المنتهية الى شارع « ابن عساكر » وهي تتخطف نظرات حذرة ، ثم انعطفت يمينا وتابعت . . قليل من المشاة وكثير من السيارات . أحست الوجوه تنهبها : « هو السارق هكذا . . يظن كل الناس تنظر اليه » وشوشت نفسها متجاهلة المارة ومتجهة نحو ساحة باب مصلى :

« أأراه حقا ؟! هل يقبل بالعودة معي الى البيت ؟ جدران البيت اشتـاقت له . وعمـر ؟ يا الهي لو سمحـوا بجلبـه معي ! » فتحت محفـظتهـا وتيقنت من وجـود صورة عمـر ، ثم أغلقتهـا : « ربـع ساعـة ؟! كان يجب ان اخـبرهم أن ربـع ساعة لاتكفي ! لا ، لا تكفي ! في المرة الماضية كانت مثل الحلم ! ثم . . . لقاءان في عامين !! »

ـ يسعد لي الله أوقات الحلوين .

نقزت على صوت شاب صار قبالتها ، فانحرفت مرعوبة : « الله لا يسعد أوقاتك يا كلب » شتمت في سرها ثم أغذّت في السير تلتف حول السـاحة . سألت الوقت : التاسعة الا سبع دقائق . قطعت

شارع المجتهد الى الرصيف المقابل لرصيف المشفى : « سأسأله الى متى يظل متواريا . . ومتى ننتهي من هذا الكابوس . . مرتان فقط داهموا البيت وسألوا عنه ولم يعودوا بعد ذلك . . يعني الى متى ؟! لا بد انـه والشباب موهومون . .فمن سيتفرغ لمراقبته أو مراقبتي !؟ » وخزت « المراقبة » سدرها قبل ان تنعطف الى الشارع الفرعي المقابل للمشفى . . التفتت ، ففـوجئت بشخص يخطو خلفهـا ! انقبض صدرهـا وتبخرت تساؤلاتها : « معقول ؟! » فكرت تستعيد سيرها طوال الطريق ، فأحست أو تراءى لها ان شبحه لازمها مذ خرجت من البيت . عاودت التلفت ، فرأته دون ان تتبين ملامحه : « أيكون واحداً منهم ؟! » نفذ الهلع الى عينيها ، فأبطأت تجلو حقيقته : « أم هو أحد المشاكسين الزعران ؟! سرّت تنأى بظنها الذي تلبسها مثل الاخطبوط . تابعت ابطاءها ، فلم يتجاوزها ولم يمض من خلفها كما أحست من وقـع خطواتـه الثقيلة مثـل مطرقـة فوق قلبها ! تناوب صدرها علوا وهبوطا وهي تجاور الدكان القديم . . عاوت النظر قبل ان تنعطف يسارا في الحارة الضيقة . . . فلمحته !

مثل رعشة تنتاب المرء فيختلج كيانه كله رغما عنه . . نزعت يدُها شريطَ محفظتها وعلقته على كتفها اليسرى ، ثم خطت في حارة شجرة الكينا تسحب قدميها كما لو كانتا تغوصان في طين عميق دبق : «قتلني هذا الصمت. . ليته يشاكسني ولو بكلمة واحدة!» لاحت الشجرة، فذابت قلقاً وندّى جسمها عرق طفح مثل حمى مباغته وهي تغور تحت وقع خطوات الصمت خلفها ودنو الشجرة منها. . .

في اللحظة التي ظهر فيها مجيد من خلف جذع شجرة الكينا يحمل سبحتـه بيـده اليمنى، شُلت يدهـا فوق محفظتها المعلقة على كتفها اليسرى وراحت قدماها تخطوان بطيئاً ، بطيئاً كما لو في كابوس حلم

ثقيل . . . دنت فلمحت وجهه المشدوه وسط لحيته التي طالت يقول ويسأل مذعوراً دون صوت . . . هجمت عليه بعينيها ، ضمته اليهما ، ثم أسبلتهما وهي تتجاوزه وقد خلَّفت قلبها يئنّ مختنقاً برائحة الخطو الثقيل الممض خلفها . أسرعت قليلاً ، ثم هرولت باتجاه الشارع العام . . قطعته الى المشفى . تحادثت ، خطفاً، مع عامل غرفة الاستعلامات . دخلت المشفى . دارت دورتين وخرجت . تلفتت خلفها وحولها ، لم تجد « الشخص » . نطت تقطع الشارع الى الرصيف المقابل . زعقت سيارة فرملت وكادت تصدمها . تابعت ركضها وشتائم السائق تلاحقها : « ولك يا . . . . . زبونك ما رح يطير ! »

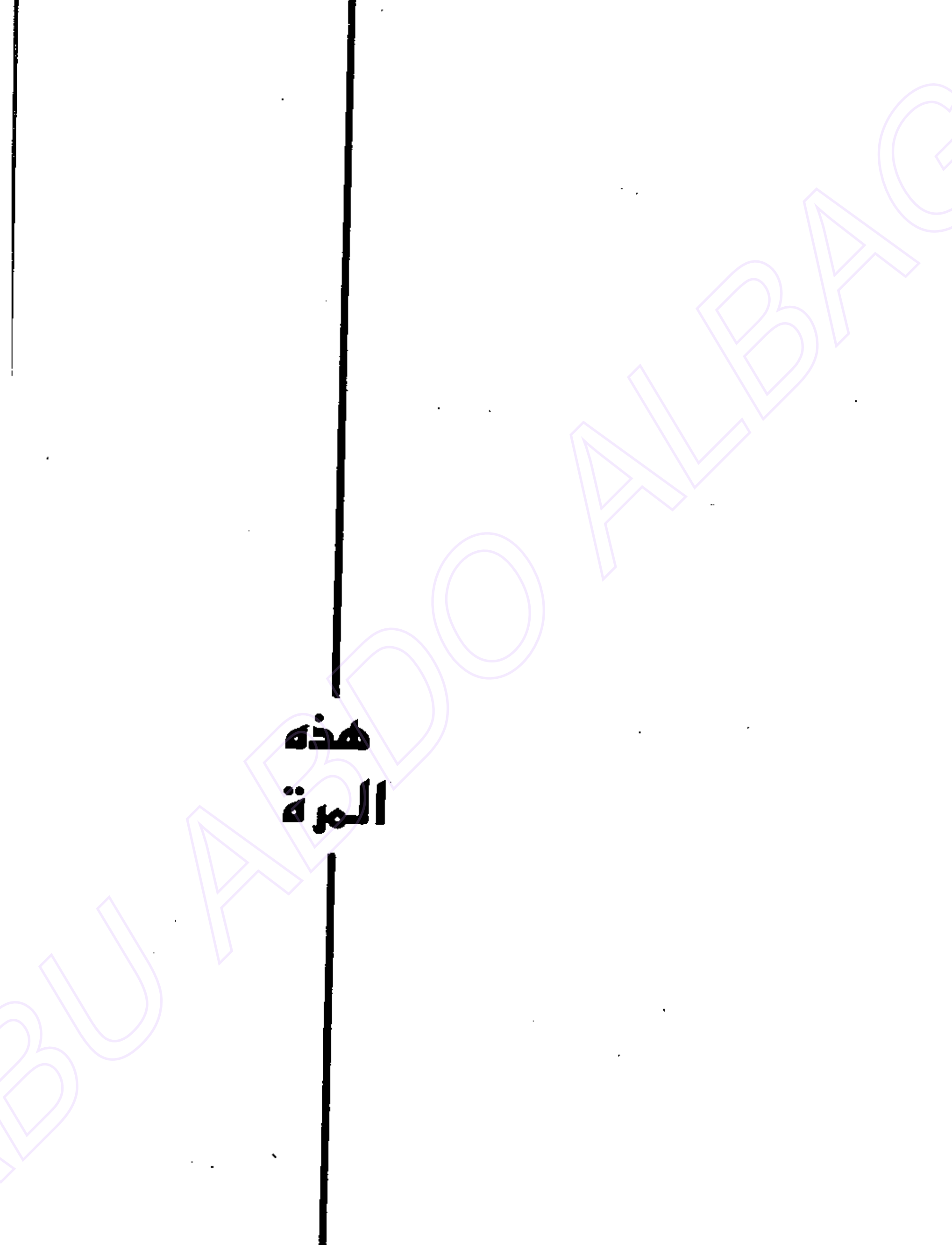
طارت باتجاه الحارة الضيقة وهي تمسك محفظتها في يدها اليمنى ، دخلتها . . . فانبجس الظلام وسحَّ في الحارة كلها ! ارتجت على فزعها ، وراحت تستطلع . . فرأت صمتاً مشبوحاً ! أدارت عينيها ، فسمعت فراغاً مجوفاً بالفراغ !

أفلِتت عيناها باتجاه نهاية الحارة . . فاصطدمتا بشجرة الكينا الضخمة الملفعة بالذهول لا تنتظر أحداً ولا يخرج من جوفها أحد ، في حين تلاشت أغصانها الكثيفة المتشابكة في فضاء العتمة .

دنت من الشجرة . . حاذتها . . ثم ضمتها الى صدرها الواجف وأخذت تدور حولها . . . فخدش جفيف يديها فراغ المكان وصمته القاتلين !

توقفت وقد أحست قواها تفرّ منها . سندت ظهرها الى جذع الشجرة وراحت ، مأخوذة ، تهوي رويداً . . رويداً ، تحت وطء محفظتها التي ظلت معلقة على كتفها اليمنى .

تموز / ١٩٨٧



هذه
المرة

ابنتي الصغيرة ، يغضبها مسح وجهها بالصابون أو رشقه ـ خفيفا ـ ببعض الماء فتفر برمه ، أو تتلوى بين يدي كلما ادنيتها من الصنبور . . . فأضطر لغسل وجهها عنوة ، متغاضيا عن صراخها وبكائها الرافض .

غير انها ، هذه المرة ، استكانت لساعدي ، وسلّمتني وجهها الذي بدا ، تحت قطرات الماء وحزمة الشمس الساقطة عليه ، مشعا بضياء غريب لم اعهده من قبل .

وتستهويها اللعبة ـ دائما ـ فتتابع ركضها المتعثر حول الكرسي ، واستمر انا في دعوتها للتوقف حتى انهي تسريح شعرها ، فلا هي تستجيب ، مترقرقة في ضحكها . . ولا اكف انا ، منزعجا ، عن تصعيد غضبي وتحذيرها بالضرب ، ان هي استمرت في دورانها وحالت دون تمكيني من تسريح شعرها .

لكنها ، هذه المرة ، كانت هادئة وديعة ، اعطتني رأسها ، الصغير المكور ، اسرح خصلاته الذهبية على صدغيها وجبينها ، كما احببت لشعرها ـ دائما ـ ان يكون .

وتواري رغبتها في اللهو بأن تشكو ضيق ثوبها الابيض المشدود على صدرها وخصرها النحيل والفضفاض عند كتفيها المبرومين وساقيها البضتين ، او تتذمر من خشونته التي تضايقها ـ كما كانت تقول ـ مما يدفعها ، دوما ، الى الاختفاء تحت السرير كلما لمحته في يدي .

الا انها ، هذه المرة ، لم تختف تحت السرير ، بل هي ارتضت ارتداء ه بهناء وروية ، أتاحتا لي فرصة عقد الشريط الحريري الازرق عند كتفها اليسرى ، والذي طالما ظل ، في الايام الماضية ، متهدلا ومثيرا لحنقي عليها .

ويغريها جوربها الازرق ، المطرز بقطتين بيضاوين ، ان تسألني عما اذا كانت القطة ستأكل اصابعها ، فأجيبها بالنفي . ثم تكرر السؤال مع الفردة الثانية ، فأضيق واجيبها نزقا : لا . فتبتسم ، وتطلب مني أن أموء مثل القطة ، فأفقد صبري صارخا ، وتفقد ابتسامتها باكية .

وعلى غير عادتها ، كفت عن السؤال ، هذه المرة ، وراحت اصابعها الفستقية تنزلق في جوف الجوربين ، دون أن أموء لها ، او تبكي امامي .

حتى حذاؤها ، كان يعجزني ويسلبني احتمالي ! فكم تطاير من قدمها الرشيقة المتمردة ، فلا اتمكن من ادخال شريطه الجلدي في حلقته المعدنية قبل ان اعنّفها واحكم الامساك بساقها جيدا .

أما هذة المرة ، فقد انسلّت قدمها في الحذاء باسترخاء وليونة دون تعنيف ، وتجاورت مع الاخرى في ازدواج محبب ، افتقدت تأمله منذ زمن طويل .

فقط . . حين رفعتها وضممتها الى صدري ، مسدلاً رأسها على كتفي ويديها حول عنقي المتصبب عرقا ، انتبهت ـ فجأة ـ الى اني لم احذرها ـ كما كنت افعل دوما ـ من الصاق حذائيها ببنطالي ، لانها ، هذه المرة ، كانت ميته .

آب / ١٩٨٦





الى
يوسف عبد لكي

لكـزه الضـوء المنسكب من صباح نافذته ، فأفاق نشطاً فرحاً . تطلع الى النافذة فبدا له هذا الصباح أجمل من كل الصباحات الماضية التي كانت تهجم عليـه وهـو في عزّ أحلامه . نظر في ساعة يده : الثامنة . بخفة وحيوية نهض يدلك ساقيه ، تمطى صوته مع جسده : « اربع ساعات . . وأكون محلقا في العلالي ! » .

أشعل سيجارة « حمراء قصيرة » وركن يغلي فنجان قهوة ، فانتبه الى أنه ، على غير عادته ، يدخن على الريق . . لكنه أبقى السيجارة بين شفتيه بعد ان استشعر لذة خاصة من الدخان الذي يلج سريعا رئتيه ، ثم يخرج متباطئا يحمل فرحة صدره ويوزعها على أرجاء الغرفة .

رشف الرشفة الاخيرة ، ثم ضرب الطاولة بكعب الفنجان كأنه يهمّ برفع كأس عرق : « لأبدأ باكراً قبل ان يفوتني الوقت » أشعل سيجـارة أخرى ، وجال بعينيه يرتب أغراض الغرفة التي سيعطيها لصديقه وليد قبل سفره .

كانت غرفة « رغدان الشيخ » أشبه بمستودع صناديق خشبية : خصَّ صناديق الوسكي المتينة للكراسي . . وراكب صناديق التفاح متراصة القطع على هيئة مكتبة بعد طليها . . وجُمع ستة صناديق شكّل منها طاولة مستطيلة . . أما « بار الاصدقاء » ـ كما سماه وليد ـ فكان عبـارة عن اربعـة صنـاديق متنـاظـرة ، معلقة في الزاوية ، أفردت

لزجاجات « الريان » و « الميماس » وللكؤوس المتنافرة الالوان والاشكال التي كان اشتراها من معمل الزجاج اليدوي . وبين « أثاث » الغرفة تناثرت صناديق ضمّت رسائل وصوراً وأوراقاً وقلائد وأشياء كثيرة متفرقة ظلت لصيقة قلبه ، الى ان قرر السفر .

حين نهض ينوي افراغ الصناديق . . هبط قلبه ! رفعه ، وجرَّ ساقيه اللتين داهمها ثقل مفاجىء ، همس يُنزل الوجبة الاولى من الكتب : « لا مجال . . انتهى الموضوع » سحب الدفعة الثانية فخلّفت فراغاً معتمًا مغبراً تلامح فيه وليد الذي ظل يعارضه طوال فترة الاعداد للسفر ، تمتم يبلع ريقه : « طيب . . ولماذا أبقى يا وليد ؟! » نكأ تساؤله نقاشهما الطويل الماضي ، فنبر وهو يخلع مسامير الصناديق المثبتة في الحائط : « فهمت . . ولكن اعطني سبباً واحداً معقولاً لاترك السفر ! » تتابعت في مخيلته سلسلة الحجج والاسباب التي عارضه بها وليد . انزل الصندوق العلوي محتداً : « لا تصرعني باسطوانتك التي حفظتها !! » شوّح بيده يتابع تفريق الصناديق : « نعم يا سيدي . . . أنا أفهم الوطن خبز وجبن ومواصلات ومشفى وبيت ! » نزع مسامير الصندوق ودفعه الى وسط الغرفة .

أشعل سيجارة واستند الى الجدار ينتظر تبدد استيائه المباغت . ثم مال على صناديق الطاولة ، قلبها . . . ففغرت أفواهها وبدت أفواه كائنات غريبة أصابتها الدهشة واقتحمها الرعب : « وماذا أجدت الاجتماعات والقراءات والحوارات وجلسات الشباب وسهر الليالي ؟ !! تفضل . . لا أكلنا عنب ولا قتلنا الناطور !! » زاح الصناديق فأزّت وارتطمت بالاخرى المتكومة وسط الغرفة : « لا وفوق هذا ، صار الاكل بالوزن والكلام بالاذن ! » .

سحب سيجارة يشعلها من عقب أخرى ، فلاحظ ارتجاف يديه .

فكر يهدىء نفسه : « طبيعي . . يعني ترك البلد سهل ؟! » ثم سارع يسدّ منافذ التعب الذي تسرب اليه : « يا رجل . . سهل أم صعب ، فالحياة هنا لم تعد تطاق » عادت طمأنينته ، فاتجه نحو « البار » يفرغه ويفككه . أنزل الزجاجات والكؤوس فهمست رنيناً فارغاً ، ثم أخذ يخلع المسامير التي راحت تئزّ بين فكي الكماشة وهي تُسحب من جسم الخشب .

دفع الصناديق ، واتكأ على خاصرتيه ينظر فيما تبقى . بدت الغرفة منبوشة مثله ، مسح كآبة وجهه ، أشعل سيجارة ، وهمَّ مندفعاً : نزع اللوحات المعلقة على الحيطان . . طوى الفراش والبطانيات . . كوَّم أوعية الطبخ . . نحَّى المسجلة والأشرطة ورقعة الشطرنج .

صارت الغرفة خليطاً من فوضى . توقف يتأمل فيما يأخذه معه ، فقرر على الفور : « لا شيء » . أفزعه القرار ، لكنه مضى يقاومه بجمع الصناديق وحشوها : « لن أحتاج هناك شيئا من هنا » ضبَّ المسجلة ورقعة الشطرنج والاشرطة في صندوق : « لا مارسيل خليفة ولا الشيخ امام » حزم الصندوق بالحبل ونحاه جانبا : « اسمعهما أنت وتذكرني . . . أنا مللت » قرَّب صندوقا فارغا وركع يجمع الرسائل والمجلات والاوراق والصور ويدسها داخله . لمح صوره مع منى . توقف يتأملها ، فهاجت أيامهما الماضية . شعر بوهن مباغت يقتنص اندفاعه . ابتسم بحزن مكسور : « هل صدقت الان يا منى ؟؟ كنت تقولين مناكفة : ولكني الياطر الذي يشدك فأين ستبحر ! أنت ياطري فعلا . . ولكن أنا الذي غرقت مثل سفينة تصدعت » أحس العرق يندي وجهه ، مسحه بظاهر كفه ثم نظر الى الساعة فوخزته : التاسعة والنصف ! .

نهض يلحق الوقت . جمع الكتب اعتباطا وعبأها بالصناديق ثم

شدّها . ألصق اللوحات بعضها الى بعض وراح يلفها بالحبل : « ولِمَ الرسم ؟ أصغر دار سينما تغصُّ بما لا تحلم به أكبر صالة عرض تضم أعمال فاتح المدرس أو لؤي كيالي !» وسَّد اللوحات فوق الصناديق المحشوة. دحرج الفراش واتبعه بالبطانيات والوسادة ، ثم حمل صندوقا يملؤه بما بقي وتبعثر . . .

حين انتهى ، شعر ان الارهاق قد هدَّه . انسحب نحو باب الغرفة المغلق . أسند ظهره ورأسه اليه . تأمل الصناديق فبدت تلة من أفواه محشوة ومكمومة بالحبال ! دبَّت فيه رعشة مباغتة فهمس : « لم أعد قادرا على البقاء » هيَّج همسه المخنوق حزنه ، فباح كأنه يودع صديقه : « صدقني يا وليد لم أعد قادراً ! سبع سنوات في المعتقل . . وسنوات في البحث عن عمل . . وأخرى في تأمين غرفة أسكنها . . وأخرى وأخرى في الركض والاجتماعات والسهر . . . يعني ما الذي عشته هنا ؟ !! » .

هزَّ رأسه وابتسم مرارة يفك أزرار منامته : « أريد ان أفهم فقط أي سفرجل هذا الذي سأندم عليه وأنا أغصُّ بكل لقمة منه !!» راقه التشبيه فتضاحك وهو يتناول قميصه وبنطاله ، ويُخرج جواز سفره وتأشيرة الخروج يطمئن على وجودهما ، ثم استدار نحو المرآة التي ظلت معلقة على الحائط . في اللحظة التي صار فيها أمام المرآة وكاد يُدخل يده في كم قميصه . . . سرقته دهشة غامضة !!

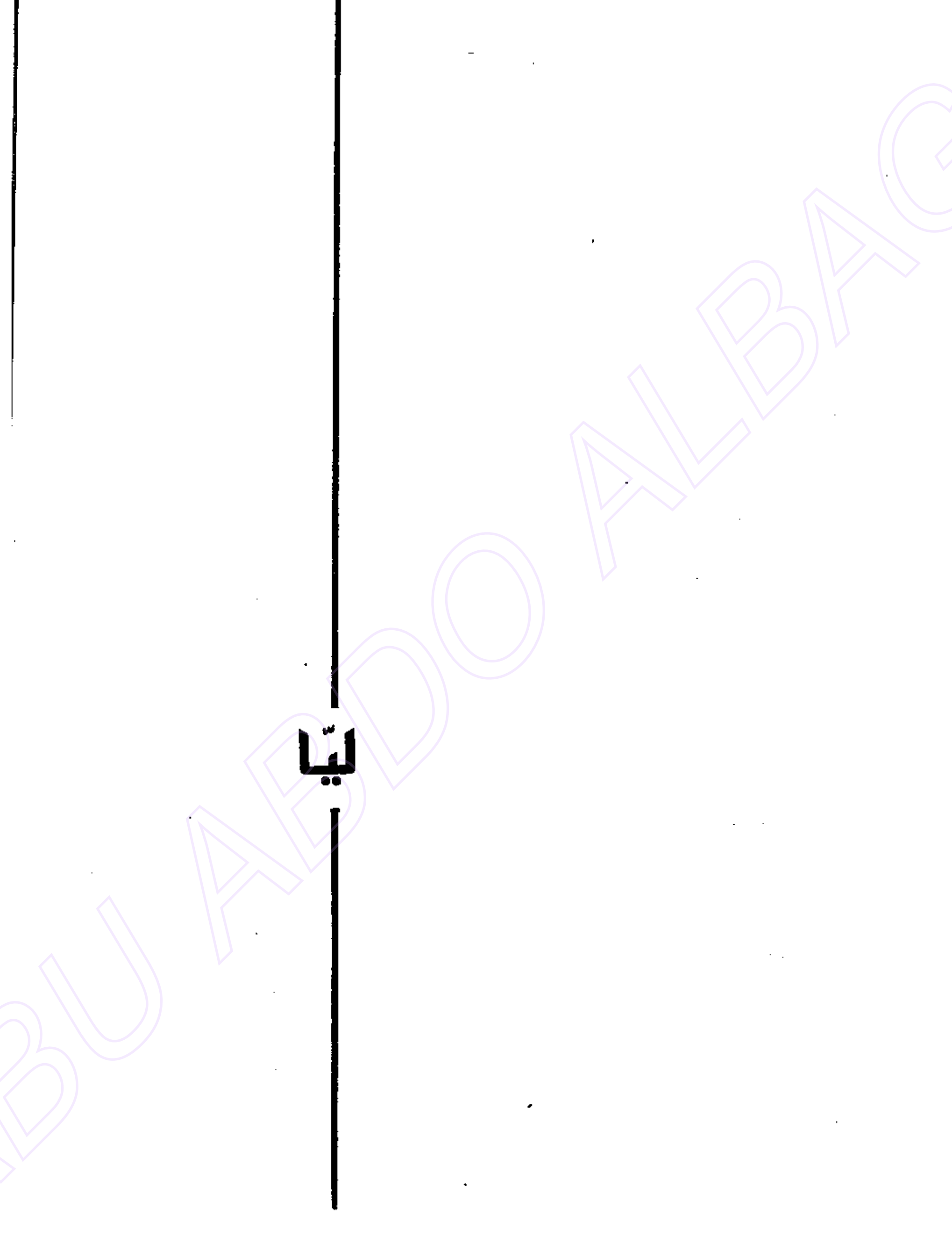
فزَّ من شروده وتلفت حائر : « غريب . . ! لِمَ لا أظهر في المرآة !؟ » عاود النظر في المرآة فعاوده المشهد الراعب : سطح أملس يعكس بضعة من الصناديق وجزءاً من الحائط المقابل دون أن تظهر بينها صورته ! « مستحيل . . أين اختفيت !؟ » صرخ مرتداً الى الخلف ، ثم اقترب بحذر من المرآة كأنه يداني وحشا مفترسا . مدَّ يدا

مغلولة بالتوجس يمسح الغبار الذي تراكم على سطحها ، فلا بانت يده على وجه المرآة ولا انزاح الغبار ! مذعوراً فرك عينية ، ثم اختلس نظرة واهنة : لا أحد ! إختلج يكذب عينيه بتلمس صدره . . فهوت يداه في فراغ أبكم . . صرخ مهووسا : « يا الهي . . كنت هنا قبل قليل ! أين اختفيت ! ؟ » جنَّ الذعر فيه وطفق يبحث عن ساقيه . . فلم يتبينها ! من وهاد الخوف اندفع نحو زاوية الغرفة وهمس بصوت أبح : « رغدان !؟ » فما سمع صوته ! كذَّب أذنيه بصراخ صوته : «رغـداان !؟ » غير ان الجدران امتصت صراخه وبقيت الصناديق قابعة وسط الغرفة فاغرة ، محشوة ، ومكتومة !

جابت عينـاه الوجلتان خواء الغرفة ، فلاذت الصناديق فيها . انتفض ملتـاثاً . هجم على الصناديق يركلها ، فأنَّت وتدحرجت . تقوَّس يقطِّع وثاقها ويقلبها وهي تتقيأ أجوافها دفعة واحدة مثل سكير لفحه الـزمهـرير . رفع صندوقا وألقى به . . ثم رفع آخر وآخر فتـطايـرت الرسائل والاوراق والصور والكتب والقلائد والاشرطة والـرقعـة وحجـارة الشطرنج . اندفع يحلّ رباط اللوحات فراحت تتهـادى متسـاقـطة . انبـطح بين الـركـام ينـادي بصوت مهدود : « رغدان . . رغدان !؟ » .

بغتة . . لامست يداه شيئا طريا ، فسكن ! ثم ، واجفاً ، عاود التسلل باللمس . . فأحسَّ تحت أنامله جسمًا لحمياً أشبه بالجسد الادمي ! جسَّه أكثر ، فتعرفه . . غير أنه كان مخدداً كما لو أن وثاقاً فك عنه للتو . . !

أيار / ١٩٨٧



ليّا

خَمنتْ أنها أرتجت الباب ـ كعادتها كل صباح ـ على همومها وأحزانها اليومية حين خرجتْ من البيت متجهة الى المدرسة . . . لكنها ، ما ان خطت بضع خطوات حتى أحست الهموم والمشاغل تتأبط زندها الحرة من الكتب المدرسية ودفتر التحضير !

نقلت الكتب الى يدها الحرة لتغلّها ، ثم ضمتها الى صدرها الناهد . . فانزلقت الهموم والمتاعب عن زندها وتعثرت على الارض ، ثم راحت تتقافز خلفها مثل طفل عنيد مشاكس ينقّ للذهاب مع أمه الى السوق .

« إيه . . . عمر ويمضي يا شيخة » خففت عن نفسها وهي تدرج على الطريق الترابية المعتادة : « عمر . . ويمضي ! » .

اعتادت « ليّا الحوش » ، في الطريق التي تقطعها راجلة كل صباح من بيتها الى المدرسة ، أن تشغل نفسها بالدورس التي ستعطيها لتلاميذها ، تلاميذ الصف الخامس ، أو تتفحص بعض الثغرات التي وقعت بها في اليوم السابق ، أو وجوه بعض التلاميذ الكسالى في صفها . وأحيانا . . . كانت تقضي الطريق ، الطويلة نسبيا ، بحثاً عن طرائق مبتكرة تدخل بها هذه المادة الملعونة ، الرياضات ، الى أذهان طلابها أو بعضهم ممن كانوا يتعوذون من الشيطان كلما آنت حصة الرياضيات .

وليّا الحوش أحبت التعليم . أحبته من كل قلبها . معّن حياتها

ولونها . دخل يوميات العيش التافه الذي تجرجره راكضه خلف السكر والرز والسمن والزيت النباتي وثياب العيد ، فصار مثل جزر ترتاح فيها في خضم متلاطم الركض . . . صحيح ان غصة صغيرة ظلت تخنقها لانها معلمة وكيلة . . لكن « ستي . . . يعني المعلمة الوكيلة ضلع ناقص ؟! » كسَّرت غصتها لتهضمها ، وتابعت السير مطرقة : « حتى لو كنت ضلعا ناقصا . . دفاتر التفتيش تشهد أني أحسن من مائة معلمة أصيلة ! نعم أحسن ! لولا انهن يقبضن أكثر مني وأول كل شهر » أضحكتها مشاكل (أول الشهر) ومشاجراتها مع زوجها الموظف بشهادة بكالوريا ، ثم فطنت أنها تسير وحدها فبلعت ضحكتها وقطعت الى الجانب الآخر من الطريق : « . . . . وفوق الدكة شرطوطة . . القبض كل اربعة خمسة أشهر . . ولا ترفيع ولا من يحزنون !! »

حزَّت تداعياتها متعة الطريق ، فتعكر وجهها وبدا مكروباً خابياً متغضناً بأحمال لا طاقة له بها .

ـ صباح الخير يا آنسة . . .

نهض ابو علي اللحام محييا بصوته الجهوري ، فتنبَّهت وردت بعد لحظة غياب :

ـ صباح الخير يا حجي . . صباح الخيرات .

« قال آنسة . . . قال !! » سخرت ابتسامة شفتيها : « آنسة طول وعرض بـ٩١٨ ليرة ! عليم الله أجير عنده لا يقبل المبلغ . . ! لا والله لو علم كم أقبض وكيف اعيش لما رضي ان يرفع عجيزته ليحييني !! »

بانت المدرسة ، فراحت تهدهد نفسها : « يا ليًا . . . العمر صار مثل البولة في الحمام ! تسع سنوات وأنت معلمة وكيلة . . . ما الذي

فتّق جروحك الان ؟! يعني باختصار لا تفكري . . فلا راتبك ولا راتب زوجك ولا راتبان فوقهما تكفي عيشكم . . وحتى لو كنت معلمة أصيلة . . . يا ستي حتى لو كنت . . . .

ـ صباح الخير آنسة

ـ انسة صباح الخير

ـ صباح الخير آنسة

تطايرت صباحات التلاميذ حول ليّا اذ كانت تلج بوابة المدرسة ، فأخذت نفسا طويلا كمن تصحو من غيبوبة ، ثم فردت ابتسامة عريضة تهمّ نحو غرفة المعلمات :

ـ صباح الخير حبيباتي . . صباح الخيرات .



رمت مشاغل الطريق عند عتبة الباب ، ودخلت الصف . . فقرقعت تصبيحات اربعين تلميذاً اعادت لها حيويتها ، فانطلقت مثل غزالة :

ـ الله يسعد صباحكم يا أولادي . . هيا . . كالعادة . . دفاتر الوظائف الليلية اولا . . اسكت يا حسن . . . ثم مراجعة الدرس الماضي . . لا . . لا اجلس الان يا مروان سأجمع الدفاتر وانتم في مقاعدكم . . اعطه مسطرته يا علي وانتبه لي . .

مثل كرة نطاطة كانت ليّا ـ كعادتها ـ تتحرك في الصف ، بين المقاعد ، خلف التلاميذ ، قرب السبورة . . تهدىء مشاغباً ، وتنبّه لاهياً ، وتضاحك مجتهداً عجولا . . فتستلّ منهم خمول الفراش الذي جلبوه معهم من بيوتهم ، وتبعث فيهم نشاطا ملحوظا قلّ مثيله في دروس أخرى مع معلمات أخريات .

صاحت من خلف الطاولة قرب السبورة :

ـ حسام ولؤي وعبد الغني . .

نهضوا من مُداراتهم وجلين .

ـ تعالوا .

تلكـأ كل واحـد منهم رجاء ان يسبقه الاخر . وتلكأت هي في حفزهم اذ داهم مخيلتها وجه زوجها صباح اليوم .

ـ اقتربوا . . اقتربوا . لم أخطأت في حلّ التمرين يا حسام ؟

ـ آنسة . . آنسة . . ما عرفت كيف أطرح الـ . .

ـ وأنت يالؤي؟

ـ وأنا أيضا آنسة

ـ وعبد الغني . . ؟

ـ مثلما قالا آنسة . .

ـ طيب . . ارجعوا .

وإذ أسبلت جفنيهـا ممتعضـة ، فيـما كانوا يهمّون منكسرين الى مقاعدهم ، ضجَّ في رأسها استياء زوجها الصارخ ، فنهضت تتكىء على يديها ، ونادت بعصبية غير معهودة منها :

ـ من منكم أيضا لم يعرف حل التمرين قبل أن أدقق الدفاتر ؟

ارتفعت بضعة أصابع مثل شاهدات أمام عينيها ، فهرعت تومىء ان اخفضـوا أصابعكم . خفضوها ، فنهض صوت زوجها : « ما عدت أحتمـل الانتـظار يا ليّـا . . . اربعـة اشهر ولم تقبضي قرشاً واحداً . . . من أين نعيش يا خانم ؟! » أخمدت صوته بالقرع المنبِّه على الطاولة . . ثم أخذت قطعة طبشور ، وتوسطت السبورة متجهة نحو التلاميذ :

ـ التمرين بسيط . . شرحته لكم في الدرس الماضي عدة مرات .

افتحوا عقولكم . حسن يا غبي العمى يضربك . . انتبه !
واستدارت تكتب على السبورة فواجهتها المساحة الخضراء الممتدة بصمت صموت : « شرف حضرتك اسأل المحاسب المعتمد . . مديرية تربية ريف دمشق . . تسألني أنا !! » ثم راحت يدها تكتب بآلية وصوتها يعلو مرهقا :
ـ لدينا العدد ٢/ ١ ٨٧ نريد ان نطرح منه العدد ٤/ ٣ ٦ ، فماذا نفعل ؟ انتبهوا !
استدارت نصف استدارة نحو التلاميذ واصبعها على العدد ٨٧ :
ـ من هذا العدد الصحيح يمكن بسهولة طرح العدد الصحيح المقابل ٦ . . . أما طرح الكسر الثاني ٤/ ٣ من الأول ٢/ ١ فكيف يمكننا أن نفعل ذلك ؟ مهران ؟ وقف ولم يجب . اجلس يا مهران . . . سعد ؟
ـ آنسة . . نوحد المقا . . . لا ، أعني نأخذ عددا بسطه ومقا . .
ثم صمت مفكراً . فنادت : عيسى !
ـ انسة المقامات أولا . . . نوحِّد مقامات الكسرين أولا ثم . . .
ـ فهمت . . . سيكون لدينا ٤/ ٢ ٨٧ - ٤/ ٣ ٦ . . ولكنني أسألكم . .
توقفت فجأة حين تنبهت أنها لا تبارح السبورة : « ولم لا أستخدم معهم طريقة عملية ؟» نزلت عن العتبة الاسمنتية ، وطلبت من التلاميذ بصوت رفيق :
طيب . . سأفهمكم . . . سأفهمكم . ليُخرج كل واحد منكم ما معه من نقود . . هيا .
وما كادت تنهي قولها حتى تدافعت أيادي التلاميذ مثل قبيلة نحل حول يدها التي راحت تجمع خليطا من ورقيات ومعدنيات كثيرة .

جمعت المبلغ ، الذي ربا عن مائة ليرة ، على الطاولة . . ثم التفتت الى التلاميذ :

ـ انتبهوا لي . لنفترض ان هذا المبلغ يساوي ٨٧ ليرة (فتشت عن ربعين ثم رفعتهما) و ٢/١ الليرة ، ونريد ان نأخذ منه ٦ ليرات و ٤/٣ الليرة . . ماذا نفعل ؟ يمكننا ببساطة ان نأخذ ليرة صحيحة من المبلغ مقسمة . .

ـ نعم آنسة . . نعم آنسة . . الى أربعة ارباع .

ـ أحسنت يا صفوح . فيصير لدينا العدد ٨٦ والكسر ٤/٦ وبذا يسهل علينا ، كما ترون ، أن نطرح منه الكسر ٤/٣ . واضح ؟ سهلة أليس كذلك ؟ طيب . . حاولوا الان حل التمارين التالية . .

أملت عليهم تمارين جديدة وكأنها تدفع كرة ثقيلة عن صدرها ، ثم جلست ساهية تجمع وتفرّق الليرات وسط لغط التلاميذ الهامس .

بغتة ، أبعدت ليّا أصابعها عن المبلغ ، وكأن عقربا نتأ من تحت الليرات المتراكبة المبعثرة على الطاولة ! سرقت لمحة الى التلاميذ . . . فبدوا منكبين على دفاترهم . نهضت وقد لدغها الخوف ، فاجتذب عينيها بريق الليرات المتلألىء .

« طبعا لا !! » أجفلت من فكرة راحت تزحف في رأسها مثل حية رقطاء . . فركنت الى زاوية السبورة تلهو بخطوط لا تراها !!

ـ آنسة . . أنا خلصت .

أنقذها صوت صفوح المنبعث من المقاعد الخلفية .

ـ أحسنت يا صفوح . . تعال لأرى .

وجدتها فسحة ، فغرقت تتأمل دفتر صفوح دون انتباه : «ولم لا ؟! هو مبلغ محترم ! تسع راتبي الشهري تقريبا . . لكن . . ؟ ستي ومن سيعلم ؟! التلاميذ . . ! سينسوا ! حبهم لي ينسيهم

المبلغ . . »
ـ آنسة . . آنسة
ـ تعال . .

وقف غسان قرب صفوح ، وغطست ليّا من جديد : « هذا هو الجنون بعينه يا ليّا ! تصوري المدير والآنسات وأنت تقفين بينهم مثل تلميذ لص شقي !! يا الهي ! »

نظرت الى التلميذين الواقفين قربها تسترق فرصة ، فبدا في عيونهما سؤالا رماديا قاتما . نزلت عن العتبة ، واندفعت بين المقاعد تهرب من كابوس حيتها الرقطاء . .

ـ من انتهى ايضا . . ؟
ـ أنا آنسة
ـ أنا آنسة

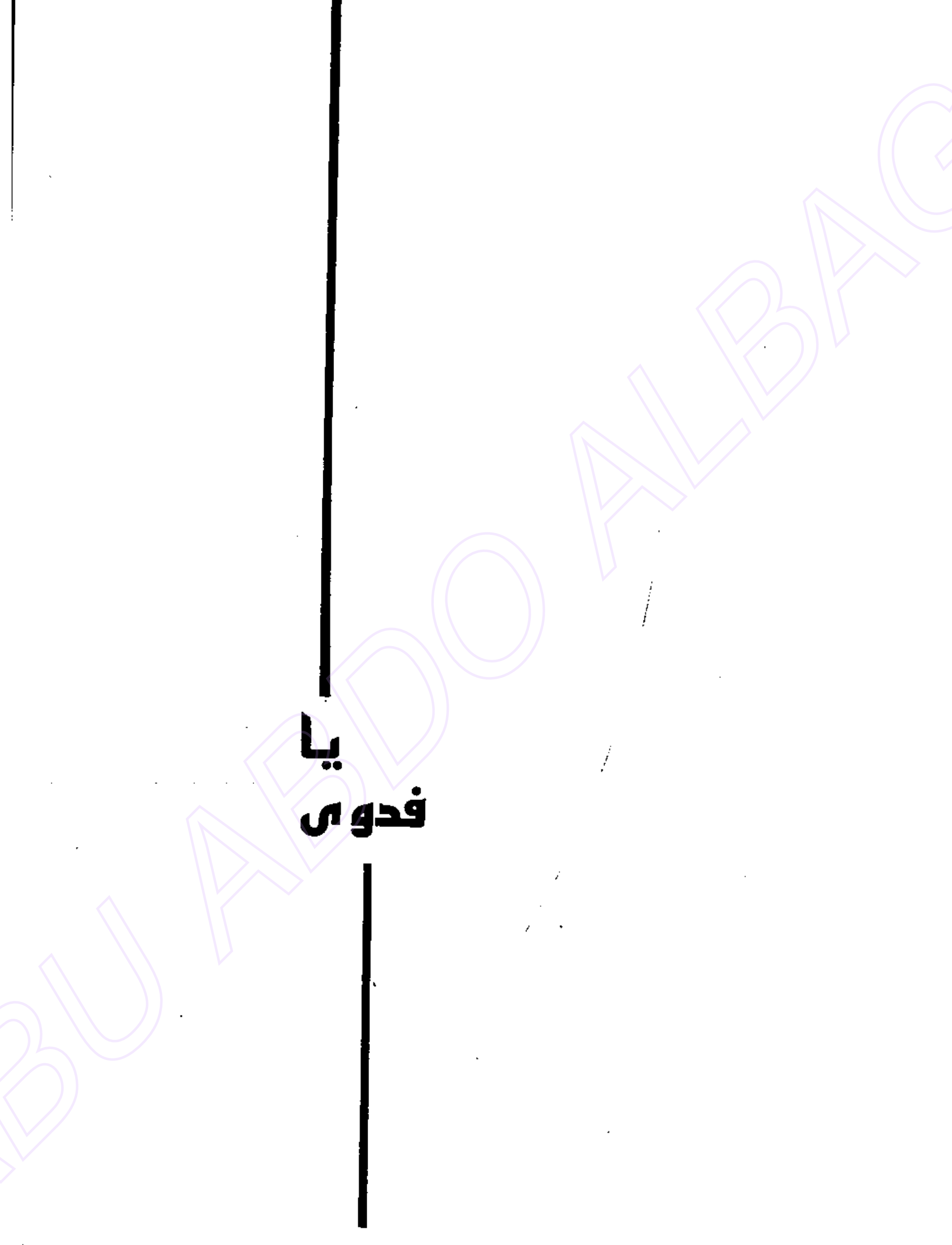
امتدت الدفاتر اليها ، فأحست كأنها وثائق اتهام يشهرها قضاة في وجه الجاني . للتو ، ابتكرت محطة تأمل جديدة .

ـ تأكدوا أكثر . . لا أريد خطأ . .

ثم تهادت بين المقاعد متوجسة من مشهد العقارب المتزاحمة فوق الطاولة : « مجنونة يا ليّا !! مرة واحدة . . ولن اعيدها ! ومرة واحدة تسقطين ! كفى ! لا أسقط ولا اعلو . . هذا في كتب الديانة فقط ! وعيون التلاميذ يا ليّا ؟ وسمعتك ؟! يا أختي . . ليرة أو ليرتان بالنسبة للتلميذ ماذا تفعل ؟! يعني صحيح الواحدة منا . . . »

مثل طلقات نارية متتالية ، اخترق رنين الجرس الآذن بنهاية الحصة أذني ليّا ، فانتفضت ملتاعة في غمرة زعيق التلاميذ وبرودة ثوبها المندى بالعرق الطافح السيّال . .

آب / ١٩٨٧



يا
فدوى

معاً ، تشويحة يده في فضاء الباص وصوت كالفحيح نتأ منه . . جعلاني أظن أن الجالس الى جانبي مصاب بمس !

وجهه ، حين خطفته بنظرة عجلى ، كان صامتاً عن لغم حاذرت انفجاره بمطابقة رقم مقعدي مع رقم بطاقة السفر . . ثم داريت اكثر بالتطلع الى الطريق الذي مضى ، للتو ، بالاتجاه المعاكس للباص .

- شيء يجنن يا رجل . . !

داهمني الصوت المتهدج قبل ان أدرك انه يعنيني . كان صوت الرجل الجالس قربي حذاء النافذة . تكلّفت ابتسامة وأنا انظر اليه ، فلم يتكلف شيئاً سوى انه تابع يخاطبني بعينين سكرانتين :

- اقسم لك بالله طقّ عقلي ! عشر سنوات مثل السمن والعسل ! ما قصّرت يوماً ولا قلت لا . . العمى !

نبر يضرب ساقه بيده ، يدفعها ثم يسحبها على امتداد الساق وظهره ينثني ويستقيم قلت لأمسك الحديث :

- خيراً إن شاء الله . . ؟ يظهر . . .

غير أنه أدار وجهه نحو النافذة ، فأتاني صوته كثيفاً مرتداً من ارتطامه بالزجاج :

- نعم . . صدّقنا وآمنّا ان الدنيا غلاء ! . . يا ستي وغلاء مثل الكذب كما تقولين ! طيب . . يعني هذا يافدوى . . .

التفت نحوي، فأجفلني اعتكار وجهه :

ـ يعني اذا كانت الدنيا غلاء يا رجل .. العمى ! مصيبة! بالله عليك أليست مصيبة ؟ هززت رأسي أهمُّ انتهاز فرصة .. لكنه تدفق :

ـ أكان ينقصنا !؟ ألا تكفي عيشة الزفت التي نعيش !؟ أول بطن .. والثاني .. في الثالث خلَّفت توأم . اربعة أولاد يلزمهم خرج مال ! وأمهم وأنا ؟ صرنا ستة ثم .. ثم إجرة البيت ؟ قال بيت قال ! قل خم دجاج يا رجل ولا تخف ! لأ سيدي ، إحسبها ١٢٠٠ ليرة من الشركة و ٨٠٠ ليرة من محل ابي ماجد بعد الدوام . ماذا أعمل ؟ أقطِّع نفسي !؟

تصيدت فرصة سؤاله لأسأله

ـ سيدي ، الحال من بعضه .. لكن ...

لم يفسح لي مجالاً ولا سمعني ربما

ـ يدلف البيت ؟ نرقِّعه . الاولاد عرايا ؟ ليسوا أحسن من الذي خلفهم ! يلزمنا ألف غرض وغرض ؟ صحيح .. ولكن نظل نلهو بالمقصقص حتى يجيئنا الطيَّار . نعم .. نظل نلهو بالمقصقص ، والا ماذا نفعل ؟! قال ماذا ؟! حسان ! يا أخي حسان معي بالشركة وشغيل مثلي .. أي نعم .. ولكن حسان يشتغل بالتهريب إضافة على شغله بعد الدوام . يا عمي الله الوكيل أنا لا أعرف تهريب صوص ابن يومين ! لأ سيدي .. ولا بيع الساعات وبناطيل الجينز ! يا أخي سرقوني .. جرَّبت وسرقوني . لا انكر . حقها . ولِمَ الكذب ! صرنا على الحديد فعلاً .. غير أن ما تفكر به من انها ....

اختنق بصوته فغيَّب وجهه في الزجاج ثانية كأنه يحاول اختراقه . حرت فيما يقول وفيما اقول . وجدتني مأخوذاً الى مجهول كلامه .

حاولت ان أخمن ، فتهت اكثر . عدت اداري مصيبته الغائمة بلهو منتظر . أرجعت ظهري ووكأت رأسي الى مسند المقعد ، ثم اخرجت سيجارة وقدمتها له :

ـ بسيطة يا شيخ . . دخّن عليها تنجلي . .

باح مهدوداً :

ـ والله لا يجلوها غير ربك يا رجل . تركت الشراب حتى أوفّر ، وبعدها تركت الدخان ايضا . ماذا عليّ ان اترك ؟ حياتي !! لأ . أنا لا اتهمها . المخلوقة ست بيت ومدبِّرة . يشهد الله انها أحسن مني ، أصلاً لولاها لجرجرتنا الكلاب ، لكن الاولاد . . .

اقتحمت كلامه حتى لا أبقى مثل الاطراش في الزفّة :

ـ فعلاً يظهر الأولاد هم . . .

ـ وأنت قلتها . يرحم امواتك . المشكلة انه لا في صدرها حليب ولا في السوق . . ويا من ترى الاولاد يتنابون المرض . طيب . . مشافي الحكومة ما فيها دواء . . أجلب من بيت أبي ؟! هذي حالنا . . طيب هاتي ما عندك ! . . اعطني حلاً !!

في تلك اللحظة ، انحسر الهدوء عن وجهه وفاضت ملامحه رعباً :

ـ ماذا !! قالت هذا حل !؟ يا جماعة الخير قالت هذا حل ! يعني إما أن تكون قد جنت . . أو أنني جننت !!

وراح يخبط يديه على ساقيه ، فيما تعاظمت دهشتي وتفشى سؤالي المعلق على شفتي . وعلى غير توقع . . أطلق ضحكة عجفاء موتورة كادت تيقّن ظني ان الرجل ممسوس .

ـ صدقني . . ليس ألعن من ان تكتم اوجاعك يا رجل خنقني الصمت وقتلني التستر . منذ شهرين وأنا أعيش دنيا غير دنيا كاتماً ما أخبرتني به . أقلِّبه على ألف وجه فيقلِّبني مثل فروج على نار جهنم !

كنت جالساً أجمع وأطرح مصروف البيت لا علم ولا خبر . . يا غافلا لك الله . . حتى جاءتني تقول يا رضوان . . الى متى ؟! قلت : خيراً ان شاء الله يا فدوى .؟ علمي علمك ! قالت يا رضوان لا طويلة ولا قصيرة . . عمرنا شحاذة . . والاولاد يكبرون بين الموت والحياة . . والغلاء ذبحنا . . يعني باختصار أريد ان اشتغل .

مال نحوي فبدا في عينيه التماع غريب موحش . همس كأنه لا يراني :

ـ وما أدراني !؟ في البداية قلت لها : والاولاد يا فدوى ؟ قالت يدبرها الدبار . قلت أسايرها : ستي يدبرها . . . ولكن ما ستشتغلين يا خانم بشهادة الكفاءة التي معك ؟! قالت : لن أشتغل بشهادتي . عجيب ! قلت وماذا إذن . . . . بالفهلوية ؟ قالت مكسورة كما لم أرها يوما : لا يا رضوان . . سأشتغل . نعم سأشتغل .

شبح الاصفرار وجهه ، فاستسلمت مذهولاً ، لم أنبس ولم أحاول . تابع كأنه في غيبوبة :

ـ في البداية لم أرد أن أفهم يا رجل . لو فهمت ما تعنيه لجننت . لكنها لم تترك مجالاً . قالت : يا رضوان . . أعرف ان الموضوع مفاجىء لك وقاس عليك . . لكن جوع الاولاد وعيشتنا قاسية أيضاً . . أردت ان اخبرك حتى لا تقول انني اخونك . قصمتْ ظهري يا رجل . صدقني لو فجعت بأولادي الاربعة لكان أسهل علي . لكني قلت صبرٍ نفسك يا رضوان . . خذ واعط معها في الكلام . وفعلاً ، رحت أقول وراحت تقول . طوال الليل ونحن لم ننقطع عن الكلام والبكاء . . تقول أصابتنا مصيبة !! حلت علينا كارثة !! والله لا أدري ؟! غير انه طلع الصبح وهي تحضنني وتبكي

واحضنها وابكي . يعني ، بلا طول سيرة ، ما في فائدة ! بعدها ، للامـانـة ، فكرت كثيراً . قلت، لنفسي اخبر اهلها ؟ لكن اهلها لا يعترفون بها أصلاً لانها احبتني وهربت معي ! أقول لأصحابي ؟ يعني وماذا سيفعلون سوى تناقل حكايتي ! حتى طلاقها بلا طعم ! أين سأرمي اربعـة أولاد ؟ ومن أين، لي بمهر الثانية ؟! وما أدراك كيف تكون ؟ لا أخفيك . . فكرت بقتلها ! للحظة فكرت ، ثم ضحكت من جنـــوني . ما ذنب الاولاد لأرمي نفسي في السجن وارميهم في الشارع ؟ وما ذنبها لتموت مظلومة . . اي نعم مظلومة . . لانها ، يشهد الله ، كانت معي طوال عشرتنا مثل ليرة الذهب . . ولولا انها كذلك لما اخبرتني اصلاً !

كان الـزبـد يرغي على فمه ، فمسحه بظاهر كفه . . فيما كنت أغور ، ساكناً ، فيما يقول :

ـ كتمتُ الأمر . قلت غيمة صيف وتمر ! وعدت أحاول معها . تخونينني يا فدوى ! قالت لا يا رضوان . . لا تغلط ! لو احببت غيرك وعـاشرته دون علمك لكنت خنتك فعلاً . لكنه ليس لي في الدنيا غيرك يا رضـوان وانت تعـرف ذلك ! أنا أريد أن اشتغل لنأكل يا رضوان . وعدنا الى نفس الحديث . هي لم تقنع معي وأنا لم يحملني عقلي . تصور ! قالت وماذا نخسر يا رضوان ؟ أغمض عيني واتخيلك معي . هي ساعة . . ونعيش بعدها مثل الخلق والناس . يا أخي . . هسترتني فكرتها . هدت حيلي . الله يلعن الفقر وعيشته . . . !

كسر البكـاء صوته فتبعثر على زجاج النافذة . حاولت ان أقول شيئاً . . ظل لساني ملتصقاً بفمي . تنحنحت . . فاختنقت اكثر .

كانت بيوت « القسطل » الطينية : تنزلق على الزجاج ، لحظة عاد صوته متهدجاً :

ـ أتعرف ماذا جرى بعد ذلك ؟

انطلق لساني لهوفاً :

ـ وماذا جرى ؟!

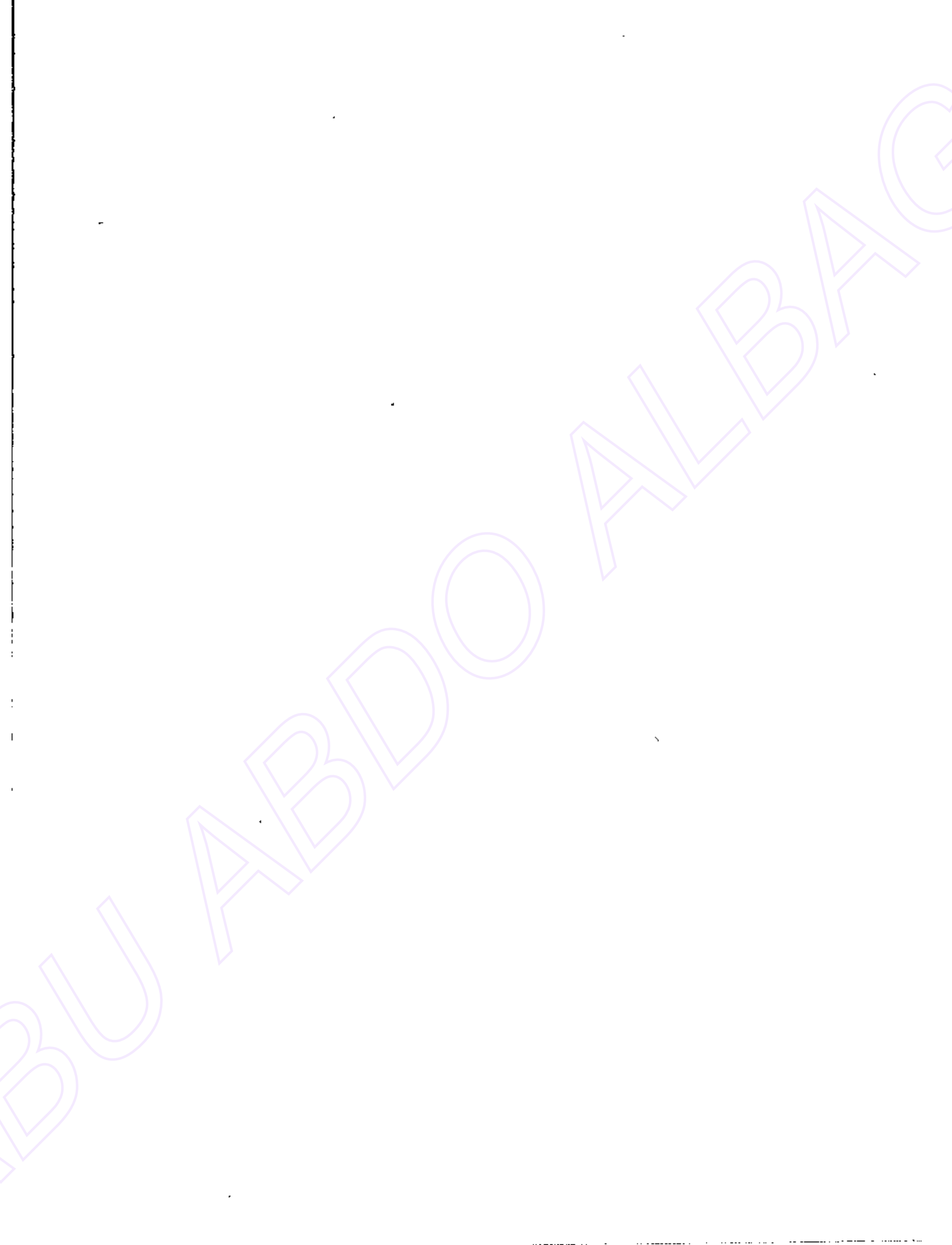
فرقع صوت معاون السائق في فضاء الباص :

ـ يا شباب .. النازل هنا يعجل .. الوقوف ممنوع !

نهض رضوان وبعض الركاب . اعترضته عيناي تسألانه ، فتمتم بما لم أفهمه وسط اللغط ، واسرع نازلاً ..

اندفعت نحو النافذة ، فرأيته يمضي جوار راكب آخر ، فيما يده تطوح يمنة ويسرة .. تدق على صدره .. ثم تشير الى رأسه ، في حين اعتقلت الدهشة الراكب الآخر ، كما بدا من خلف النافذة المغلقة باحكام .

تشرين الاول / ١٩٨٧


BU ABDO ALBAG

الفهرس

صدر عن دار الجندي

١ ـ بيت الأرواح (رواية)	ايزابيل الليندي
	ترجمة: د. سامي الجندي
٢ ـ تصورات العالم في	د. ابراهيم عاتي
الفكر الاسلامي (دراسات)	
٣ ـ المعتقل (رواية)	ليجسون كايبرا
	ترجمة: عبد العزيز عروس
٤ ـ الفطيرة الطائرة (رواية للفتيان)	جاني روداري
	ترجمة: دلال حاتم
٥ ـ تقرير الى غريكو	نيكوس كزانتزاكي
	ترجمة: ممدوح عدوان
٦ ـ الشمس وأصابع الموتى (شعر)	الشاعر علي الجندي
٧ ـ في البدء كانت الثورة (مسرحية)	د. سامي الجندي

رائحة الخطو الثقيل

ابراهيم صموئيل! . أين كان يختبىء هذا الاسم حتى الآن؟! .

منذ أول أقصوصة قرأتها له - في «الموقف الأدبي» أواخر عام ١٩٨٦ على ماأذكر - أحسست على الفور أنني حيال موهبة أكيدة .

كنت أسمع باسمه لأوّل مرّة ، وقد كتبتُ عن قصّته في المجلّة نفسها معجباً ، وحين تعرّفت إليه شخصياً فيما بعد فوجئت أنه سوري - وليس مصرياً كما ظننت أول الأمر - وأنه أكبر في السنّ مما تصوّرت . ثم قرأت له في «الإسبوع الأدبي» أقصوصة أخرى أكّدت لي موهبته للمرة الثانية ، ثم قرأت هذه المجموعة مخطوطةً ، وعندها كان لابدّ أن أسأله مستغرباً : أين كنت مختبئاً ياابراهيم حتى الآن؟ . إنك تكتب القصة القصيرة بإحساس متميّز جديد ومؤثّر ، فلماذا انتظرت كل هذه السنين قبل أن تنشط للكتابةِ والنشر؟ .

ليس مهمّاً أن أعيد إجابته هنا بالتفصيل . المهم أنها أكّدت لي أصالة موهبته كقصاص ، وكانسان أيضاً . إنسان متواضع ، ذكي ، بسيط غير مستعجل الشهرة على الاطلاق ، وأن حياته الشخصّية بحدّ ذاتها قصّة معاناة إنسانية رائعة جديرة أن تكتب ، وتمدّه بالالهام طويلاً .

كثيرون في هذه الأيام من يكتبون أوّلاً ثم يعيشون . . أما ابراهيم صموئيل فلقد فضّل أن يعيش أوّلاً وبعدها يكتب . . وهكذا يكون لديه فعلاً مايقوله . .

شوقي بغدادي